

عَيْتِي إِسْكَنْدَرُ الْمُعْلُوفِ



دار المغارف بمصر

عيسى إسكندر المعلوف

عيسى إسكندر المعلوف

المؤرخ الموسوعي الأديب

بقلم: البدوي الملتزم



دار المغاريف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .



عيسى إسكندر المعلوف

١٨٦٩ - ١٩٥٦

(آثاره^(١)) تُنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراهُ
تالله لا يسخو الزمان بمثلـه أبداً ولا يرمى العلومَ سواهُ

(١) المجلة التي أصدرها الفقيه (١٩١١ - ١٩١٤) باسم (الآثار)

الإهداء !

إلى « شاعر عبقر »

الأستاذ شفيق معلوف ،

اعتزازاً بخلقه

وزهماً بأدبه !

« البدوي المثلث »

(عمان - الأردن)



الأستاذ شفيق معلوف

المقدمة الأولى

لعام ١٩٣٩

بقلم

الكاتب العربى الكبير

الأستاذ عجاج نويهض



أخذ هذا العصر فى العالم
العربى يشبه .. كثيراً عصر المأمون
العباسى ، مع اختلاف الحالة
السياسية ومبلغ الاستقلال بحوزة
الديار ، فى ازدهار العلم وذيوعه
وانبثائه فى الآفاق ، وتآلق النوابع
الفحول والجهابذة والأئمة فى مختلف
أبواب العلوم والفنون وما إليها من
حكمة وفلسفة ، وتمحيص للفكر
البشرى الذى انتهت إليه الحضارة
المعاصرة الجبّارة ، أمّ الجبروت
كل شىء ، أمّ أرقّ الدساتير

السياسية الملوّنة والديموقراطية المتنوّعة ، والدكتاتورية الموحدة ، كما هي أمّ كل جديد من الحديد والنار والكيمياء والكهرباء !

ولكن هذا العصر لا يشبه عصر المأمون في ناحية أخرى لم تكن تفهم أو تعرف أو يحلم بها من قبل ، وهي التي تُسمّن لنا في القرن العشرين كيف تُبنى الدولة ، وبماذا تختلف في أهم صفاتها وطريقة تركيبها عن دولة الماضي . إذ ليس في العصور الخوالى عصر كان طرفه الأول قائماً على فلسفة الهند مشخصة بزاهد ناهل كالمهاثما غاندى ، وله مذهبه وعقيدته في الاعتزال والصمت وقراع السلطة السياسية بالمقاومة السلبية التي تجتنب إراقة الدماء ، سلاحه « المغزل » ومصنعه الحربى « صرع العنزة » ، والطرف الآخر من ذلك العصر ممثلاً بستالين وتشمبرلين ودلايه وهتار وموسولنى وفرانكو ، وبين هؤلاء وهؤلاء خلفاء أديسون وماركونى ، وكثير من أدوات الزينة والزخرف ، كعصبة الأمم ومؤتمرات المائدة المستديرة ، والطائرة والمدرعة ، والغاز السام ، والكمامة الواقية . . . !

* * *

غير أن العربى وهو يشير إلى الشبه العلمى بين عصر المأمون وعصرنا الحالى ، يعتزّ اعتزاز المفاخرة والمباهاة ، ويشعر بشيء كأنه موجة تيّثار كهربائى تجري في عروقه ، عندما يسمع بذكر الأمهات المباركات من دمشق وبغداد والقاهرة ، فضلاً عن مكة المكرمة وغيرها من الخواصر ، مقروناً بذكر الروافد الأخرى كالقدس وعمان وبيروت ، إلى عشرات

المدن والثغور في الرقعة العربية ، ويحسّ حوافز العصبية القومية تعتلج في قلبه ، يقتدح زنادها لأقل عارض من الحرارة ، حتى ولو كان ذلك في سياق خبر نشرته الصحف السيّارة ، أو نقلته الشركات البرقية ، أو أطلقه هذا الرأس المثلث ، المذيع العجيب ، وبشّه في طبقات الأثير حول الكرة الأرضية ، كما يفعل كل يوم .

* * *

فالإنكليزي ، مثلاً ، على ضخامة ملكه وتراعى أطراف إمبراطوريته ، والفرنسي ، والألماني ، والياباني ، والطلياني ، وما لهم من سؤدد منبع ، ليس لأحدهم على ما أعتقد ، من المجال الرحب في بسّعت مجده القومي التاريخي ، ونشره من مطاوى حقبه ، ما لهذا العربي النجيب ، وارث حضارة الأقدمين ، ومنشئ حضارته التي عُرِفَتْ به وباسمه ، المتقلب — بعد الجزيرة — في رقعة الشام والعراق وسواحل البحر ، وأعلى الجبال ، من الموصل إلى شواطئ البحر الأبيض ، ومن الإسكندرونة إلى عدن ، منذ مئات السنين قبل الإسلام وبعده ، إذ لو جاء كل بني الأقوام اليوم بحساب ماضيهم وتراثهم ، ومزج ما جاءوا به بعضه ببعض ثم وُزِعَ ذلك حصصاً وسهاماً على نسبة في الأمم والشعوب ، لخرج العربي صاحب الحظ الأوفر والشقص^(١) الأكبر ، فلماذا لا تغمر موجة العزة حواسه

(١) الشقص : النصيب ، السهم .

ومشاعره ، إذا ما استغرق في عَرَض هذه الذكريات المثيرة المشجعية
طرفة عين ؟

* * *

إنى لست وأنا أكتب هذه المقدمة ، في صدد وصف الأمة العربية
في مناحي نهضتها الحاضرة ، وإجراء القياس بين حاضرها وماضيها ،
ولكنى أرغب في أن أقول بإيجاز ما أشبه هذا العصر الذى تتمشى عوامل
الرقى العلمى فى كل ناحية من نواحيه ، بعصر المأمون ، مستثنياً الفرق من
الناحية السياسية .

أما فى التقارب والتداني والالتقاء ، فتكاد الأمة العربية اليوم ، بفضل
ما يُسمّى بـ « طرق المواصلات » البريدية والحيوية والأميرية ، تمحو من
المعجمات مادة « بُعد الدار وشطّ المزار » ، وكيف لا تمحوها وكل مساء
يتحلّق الرهط حول « المدياع » فى كل مكان فيسمعون : « هنا بغداد »
و « هنا القاهرة » و « هنا القدس » و « هنا بيروت » !

* * *

ومن بناء نهضة العرب اليوم والرافعين أعمدتها ، جيش من العلماء
الذين هم بين كتبهم وخزاناتهم أعزّ من القواد بين جنودهم فى أمنع
حصونهم ، والذين يعتقدون بأن « حبّ الوطن من الإيمان » ، وأن هذا
الوطن إنما يُبنى على المكاتب والكتائب ، وأن العلم إن لم يخدم العلىّ ثم
الأمم ، كان كالطعام الذى لا يُشهى ، ولو كان بالنفس إليه حاجة !

و«العلماء» ، كلمة من أشرف الكلم التي رصّعت الحضارة العربية بأغلى الجواهر ، وهذه الكلمة معنى سلفى ومعنى عصرى ، وإني عند الاختيار والتعيين أتعلّق بالأول ، ولا أرى حاجة إلى تعريفه بحدود للقارئ ، وإنما أرجو منه شيئاً يسيراً وهو أن يميّز بين «العلماء» بمعناها القديم ، ومعنى «العالم» اليوم بقوانين هذا العصر وسننه !

ذلك على الجملة ، أن المعنى القديم له صورة خاصة ، وميزات نوعية قائمة بنفسها ، تجعل من عالم عصر المأمون ، مثلاً ، «عالمًا صغيراً» أو «دويلة» أو «موسوعة علوم» ، والذين غدّوا الحضارة العربية بنتائج قرائحهم وعقولهم ، هم هؤلاء «العلماء» .

أولا تذكر الحديث الشريف : «العلماء ورثة الأنبياء» و «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء» .

وممنهم لم يخلُ عصر ولا مصر ، ولكنهم كانوا يقلّون ويكثرّون ، شأنهم شأن الدولة ، ضخامة وانكماشاً ، وانبساطاً وتديلاً .

* * *

ثم إن هؤلاء العلماء على أنواع متعددة ، كأنواع العلوم وأبوابها ومذاهبها وتقاسيمها ، وقد يكون الواحد منهم جبراً بجرأ في علم واحد ، أو جملة علوم ، تقاربت أو تباعدت في موضوعاتها .

ولما جاء العصر الحديث بآياته وعجائبه ، وثوراته وانقلاباته ، ونظم العلوم كلها في سلك جديد ، توزعت هذه العلوم في مختلف أنحاء

المجتمع ، وتعلقت بها الوظائف وارتبطت المعاش وأبواب الرزق المنظمة ،
لا في نطاق الدولة وحدها ، بل أيضاً في الميادين الحرّة ، وما تنطوي عليه
هذه الميادين من صناعة وتجارة واقتصاد وزراعة وأداة وآلة ، ومعهد ومعمل
ومصنع ، مما لم يعرف له مثيل في الزمن الغابر !

فعندما تذكر « العلماء » ، علماء حضارة الرشيد والمأمون ، وعلماء
حضارة العصر ، فاذا ذكر الفرق بينهما ، ولكل فضله وميزاته !

* * *

وقبل أن يشتهر علماء فرنسة في القرن الثامن عشر بتلك الميزة التي
اتصفوا بها ، وهي التضلع من علوم مختلفة والمشاركات في ما لا حدّ
له من أبوابها على ما أودعوه « دائرة المعارف الفرنسية » ولذلك سمو
بـ « الإنسكلوبيديين » بزعامة « ديدرو Diderot » و « دالمبارت D'alembert » ،
كانت الحضارة العربية قبل ذلك بألف سنة قد جعلت تنجب هذا الطراز
من العلماء في كل حاضرة وصقع ومصر — وما « إخوان الصفاء » إلا
مثلاً يسيراً من هؤلاء — من الهند إلى غربي آسية ، فصر فسائر المغرب
الأوسط فالمغرب الأقصى ، المعروف كله اليوم بالمغرب العربي ، فالأندلس
فجنوب أوربة ، حتى لا تكاد تحصى مدينة كبيرة أو صغيرة في هذه
الأرجاء المتناسك بعضها ببعض في البسيط العربي الإسلامي في القارات
الثلاث ، إلا وينسب إليها العلماء الذين اجتروا العجائب والغرائب ،
ولست أعني بـ « العالم القديم » إلا الذي صنع بعلمه شيئاً خالداً في باب

من أبواب العلم ، وكم من مئات صنعوا هذا في علوم عديدة !

* * *

وأراني أقبلتُ على بيت القصيد في هذه المقدمة : فإن العلامة عيسى إسكندر المعلوف الذي وضع هذا الكتاب في شأنه ، هو من علماء الأمة العربية في هذا العصر ، على طراز العلماء الأولين السابقين ، الذين من ثمرات عقولهم نسجت الحضارة العربية العلمية خيوطها الذهبية عصرراً فعصرراً ، فكان مجد العرب الخالد ،

هو اليوم من مقدّمى مشيخة العلم العربي « الإنسكلوبيدين » أو « الموسوعيين » ولا جدال ،

هو حلقة من سلسلة فريدة نادرة ، أصبح رجالها أفراداً وآحاداً ، غير أن الفرد من هؤلاء يكون « عالماً صغيراً » بنفسه ، أو « دويلة » أو « موسوعة علوم » تامة الأجزاء ، من الألف إلى الياء !

يتحدّر من أسرة عربية محضة العروبة ، غسانية الأرومة ، منشؤها الأول حوران والشام وبردى ، ثم أخذت عروق منها وأصول في النزوح والنزول والاستيطان حتى هبط نفر عزيز منها زحلة والبردوني ، ولا يزال « آل المعلوف » كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء !

* * *

ولماذا لا أستعرض بعض تعابير واصطلاحات دارجة في هذا العصر الحديث ، لأصف « المعلوف » بقية السلف المأمونى القديم ؟

فهو يحمل في هذا العصر ، عصر « الفيزا » و « جواز السفر » ، أجوزة « ثلاثة » لكل واحد منها خصائصه وميزاته :

فالجواز الأول :

تقرأ فيه أن العلامة المعلوف هو صاحب المكانة العلمية التي جعل خلال خمسة عقود مطردة يجتاز بها بلاد الله ، قطراً بعد قطر ، وإقليماً بعد إقليم ، حتى صار أفقه الذي يسبح فيه لا أفق زحلة ولبنان وسورية ، بل أفق العالم العربي الفسيح ، يضاف إليه عالم « المهجر » الذي لم يكن يذكر عصر المأمون . فسقطت الحجة « الإقليمية » ، وانهارت في شهر البردوني — على مائه العذب السلسيل النير — الدعوى « القطرية » ، من أن المعلوف هو لزحلة وما جاورها ولخيرتها الأقربين ، ولو امتدّ هذا من « طورس » إلى « رفح » ، وما هو إلا للعرب كافة ، في القاصية والدانية ، وما هو إلا « للضاد » في مختلف الرقعة والبلاد .

والجواز الثاني :

ينبتك أن المعلوف ، على وداعته العلمية التي فُطر عليها وحبّه الخير المحض للناس ، قد رماهم بمعضلة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟! وما هذا الجواز الثاني « في جيبه » إلا إشارة إلى أن هذه المعضلة مستعصية ، عسيرة الحل . ومن استطاع أن يحلّها فليقدم . ذلك أن المعلوف في عديد

العلوم التي تناولها وحذقها ، وقلّبها ونخلّها ، وارثشفها وامتصّها ، أمسى — باصطلاح الطبيعيات — كالجسم الموشور ، له جهات بلّورية متعدّدة متساوية القياس ، فقل لي ، والحالة هذه ، بأيّها تبتدى ؟ وبأيّها تنتهى يا ترى ؟ !

نعم هو يتّشح بثوب المؤرخ الثقة فوق جميع أوشحته العلمية ، ولكن مع هذا :

هو في العربية ابن بجدتها يُشار إليه بالبنان .

وهو في الكتابة والتأليف لا يشكو قلمه عطشاً ولا قرطاسه جفافاً ، حتى إذا جثت تعدّد كتبه وأسفاره ورسائله ، المطبوع من كل هذا والذي لم يبرح مخطوطاً (كما سترى في هذا الكتاب) ومحاضراته وخطبه وديوانه الشعري ، أخذك منه العجب ، كما حصل للمتقدمين ، وهو أنك لا تكاد تؤمن وتصدّق أن العمر مهما طال وشغل بالعمل دأباً واطراداً ، يتسع لمثل هذا الإنتاج الضخم ، الذي يسميه علماء الاقتصاد « بالإنتاج الكبير » ، وأي إنتاج ضخم كبير هذا — أعجوبة فحول العلماء لا تزال تتكرر !

وهو صحافي قديم ، ومجلدات « الآثار » ماثلة في المكاتب حيّة ناطقة !

وهو في الشعر من مالكي زمامه ، وكفاه أنه منجب فلذة كبده « فوزى » الذي جابت شهرته الشعرية البلاد ، وبذبوله قبل الأوان خسرت

دولة الشعر العربي المعاصر ملهماً ارتفع به الإبداع إلى مستوى الطبقة العالية بسنوات ، فلو امتدّ به الأجل ، لأتقن بالعُجب فوق ما ترك وخلف !
فما أشبه المعلوف وهذه معضلته ، بمنعدن يستخرج منه الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، وكلما زاد عمقه انكشف عن طبقات معدنية جديدة ،
غالية القيمة !

* * *

وإن طال الانتظار قليلاً ، فلست ناسياً « الجواز الثالث » !
غير أنه يوجز بعبارة ، وهو « بلغة القناصل » صالح لسفريات متعددة مدى العمر إلى « دولة المطابع » ! ولكن كتب المعلوف المخطوطة ،
العديدة المعدة للطبع ، والتي من عيونها « تاريخ الأسر الشرقية » الكبير الواسع ، وأعظم به من تاريخ ، لا تزال « حواجز الحدود » تعوقها عن
ولوج دور الطباعة .

* * *

وبعد الانتهاء بالقارئ إلى هذه التخوم والحدود ، ولا مجاز لي بعدها إلى
ما هو أبعد منها ، ولا زاد لي في ما بقي من الدروب ، وليس بيدي شيء
من « أجوزة سفر » المعلوف ، أحبّ القارئ أن يدني أذنه « الصحيحة »
منى ، لألقى فيها همساً :

ليس من خدمة تُسدى إلى العلم والعرب اليوم ، استثماراً لإنتاج
المعلوف ، أفضل وأبرّ من أن يعصو صَبَّ صَحْبُ المعلوف حيث يريدون ،

ويؤلفوا لجنة خاصة منهم ، وكلهم لعمري محب العلم والعرب والمعلوف ،
تعنى بوضع مشروع يكفل طبع أمهات كتب هذا العلامة ، التي
حيّوت ذخيرة بحثه واستقصائه ، وطواها على محصّات آرائه ، ومما جلاه
تحقيقه ، ورشحت به قريحته وما أبدع تقليد هذه البدعة في تكريم
العلماء كما يجري عليه القوم في الغرب !

فكتب وذخائر وأعلاق كهذه ، وسيمرّ بك تعدادها ، إن لم تخرج
إلى الناس ، فكيف تقرّ عين المعلوف ؟ أو لا يكون البطء في إخراجها
جناية على العلم وظلماً « لورثة الأنبياء » ؟

عجاج نويهض

القدس

٧ ربيع الثاني ١٣٥٧

٢٧ أيار ١٩٣٩

رشحات قلم . . . !

لعام ١٩٣٩

فى البسيط العربى اليوم حفنة طيبة الفوح ، معطرة الأرج ، من مشاهير الكتّاب وأعلام المعرفة الذين جاهدوا فى سبيل (الضاد) وأقعدوها منازل الرفعة ، و بوأوها صهوات المجد وهم يهتفون :

فإنّ (ليلي^(١)) فتاة لا مثيل لها صيغت من الحسن شكلاً ما لهُ ثان
إلى البداوة منسوبٌ منابها وإن نمت فهل فخر كعدنان ؟
ألفاظها دُررٌ ، تركيبها صورٌ آياتها غررٌ ، فى كل قرآن !

من عيوبنا نحن الشرقيين أننا نقوم متباطئين بأداء ما لتلك « الحفنة »
المباركة من « ذم » فى الأعناق ، وكثيراً ما ضحّى رجالها الأعلام فى سبيل
(الضاد) ، وأمضوا سحابة العمر يصاولون الخصم ، ويجاولون من يرميها
بالعقم !

ولعمر الحق ، بائسة هى الأمة التى لا تشعر بجهود جبابرتها إلا وهم
فى طريقهم إلى القبر . . . واكله ذلك للتاريخ الذى يجلو صفحات

(١) من قصيدة للشاعر الشيخ قسطنطين الحمصى (١٨٥٨ - ١٩٤١) بعنوان
(البداية) نظمها رداً على طغمة من ضعاف النفوس الذين قاموا يدعون إلى استبدال اللغة الفرنسية
باللغة العربية فى دواوين حكومتى سورية ولبنان .

جهادهم ، ويعدد مفاخرهم وأبجادهم ، وكل ما تُجزى به الأمة أديها
« حياً » قولها :

« لله درّه ، لا فُضّ فوه ! »

هم يقتلون اضطهاداً كل نابغة حتى إذا مات أولوه النياشين^(١)

وهذا التقرير يذكرني ببيت للشيخ ناصيف اليازجي في (المقامة
الحكمية) من كتابه (مجمع البحرين) هو :

لا يحمد القوم الفتي إلا متى مات فيعطى حقه تحت الثرى !

ومن تلك « الحفنة » الشذية القوح ، المعطرة الأرج ، الأستاذ عيسى
إسكندر المعلوف ، شيخ مؤرخي العرب المعاصرين ، ووالد الشعراء
النوابغ : « فوزى » و « شفيق » و « رياض » الذين فتحوا في أدبنا المعاصر
فتحاً مبيناً ، وخدموا (الضاد) بنفحاتهم المكنحة ، ورفعوا من قدر أمّتهم ، في
عيون مفكرى الغرب ، إلى أرفع عوالم المجد والفخر !

و (كتابي) هذا (فصول) حزمها في مؤلف أزفّه إلى الشيخ الجليل
المعلوف إقراراً بفضلّه واعترافاً بتفانيه في سبيل الأدب وخدمة التاريخ .
وإنّ أنسّ لا أنسى كلمة قالها الدكتور رثيف أبو اللمع في حفلة
تأبين المرحوم الشاعر وديع عقل :

(١) من قصيدة للشاعر المرحوم قيصر معلوف ألقاها في حفلة استقبال جئان فقيّد
الأدب العربي المرحوم فيلكس فارس (١٨٨٢ - ١٩٣٩) عند وصوله إلى (المريجات)
بلبنان .

٢٤

« إن زهرة واحدة تقدمها للأديب في حياته ، لأفضل في عيني من
الإكليل الذي تضعه على قبره يوم وفاته ! » .
فليتقبل العلامة المعلوف هذه « الفصول » مشفوعة بتقدير واحترام
ومُحبة .

السيد
المعلم

(عمان - الأردن)

١٩٣٩/٨/٣١

المقدمة الثانية

لعام ١٩٦٤

بقلم

الكاتب العربي الكبير

الأستاذ عجاج نويهض

مقدمة :

إرسالة في شيخ العلماء وإمام المؤلفين والمحققين ، عيسى إسكندر المعلوف رحمه الله تعالى ، وضعت سنة ١٩٣٩ في بيت المقدس ، تلبية لرغبة صديقي القديم الكاتب الأديب الأستاذ « البدوي الملم » ، والأستاذ الإمام وقتئذ حتى في المتوسط من شيخوخته المباركة ، وما قد مضى على وضع تلك المقدمة ربع قرن ، في خلاله كانت الحرب العالمية الثانية ، وتغيّر العالم ، وبالتالي فقدت العروبة والعلم الأستاذ المعلوف منذ سنين قليلة ، وتلك الرسالة التي وضعها فيه « البدوي الملم » بقيت لأسباب قاهرة مخطوطة حتى اليوم لم تنشر بالطبع ، والآن سنة ١٩٦٤ يريد « البدوي الملم » وفقه الله وهو من أوفى الأوفياء لأستاذنا العلامة المعلوف ، أن ينشر كتابه ، ونعم ما يفعل ، فسألني رأيي في المقدمة فقلت له :

« شئء كتب سنة ١٩٣٩ حول مكانة الأستاذ الإمام في العلم والفضل ، وهو يومئذ سيد العلماء حتى مبارك الحياة ، قد انقضت مناسبته فلا أرى ما كتب في هذا الباب سنة ١٩٣٩ يصلح ليفيه غرضه أو بعض غرضه سنة ١٩٦٤ ! » ..

وأضفت إلى هذا أن مكتبتى وجميع أوراقى كل هذا ذهب إلى اليهود في بيت المقدس سنة ١٩٤٨ فليس عندى أى أثر مما كتبت في ذلك الحين ، في الربيع من تلك السنة ، وهتلر في الذروة من صيحاته وبطشاته !

* * *

وكننت سنة ١٩٣٩ أسكن بيت المقدس ، و « البدوى الماتم » عمان ، وعلاّمة الوقت زحلة ، عروس لبنان ، وفي سنة ١٩٤٨ انتقلت إلى عمان وقد انهار ما انهار من فلسطين ، فبقيت في الأردن حتى أواخر ١٩٥٩ ثم انتقلت إلى لبنان . وكان « البدوى الماتم » قد أخبرنى وأنا في عمان بمجمل السبب في عدم نشر كتابه ، وأنه لم يزل مصمماً على ذلك وفاءً لبعض حق الأستاذ الإمام ، ولكن الكتاب قام بطواف واسع بين الأردن ومصر وسورية حتى حلب ، في قصة لذيذة لا أحسب « البدوى الماتم » إلا موجزها للقارئ على كل حال !

* * *

والآن يريد « البدوي المثلث » إعداد الرسالة للطبع ، أو تحقيق ما كان قد عزم عليه سنة ١٩٣٩ مع إبقاء تلك المقدمة على حالها ، ولكنه رأى أن يعيدها إلى " لأعيد فيها نظري ، ففضل بهذا وأرسلها إلى " إلى لبنان من عمان ، وإذا بي أمام طريقتين لا ثالث لهما :

فإما أن نغيّر المقدمة كلها ، وإما أن تبقى على حالها ، ولكن توضع أمامها كلمة جديدة تبيّن صفوة القصة .

فأما الوجه الأول فالآتي فيه قليلة لأن الكلام على العلامة المعلوف اليوم ، وهو في أعلى عاينين ، يحتاج إلى تناول بنى المعلوف كلهم ، وهم ، بارك الله في أرومتهم الغسانية وفروعهم اللبنانية سلفاً وخلفاً ، عشيرة علم منبسطة الظل في هذا العالم العربي ، ولا بد أن يتكلم في هذه الناحية مؤلف الرسالة « البدوي المثلث » ، فبقى على أن أختار الوجه الآخر ، وأرجو من القارئ أن يعتبر هذه التوطئة شيئاً من « تاريخ » المقدمة للرسالة الوافية التي ستكون في يد القارئ سنة ١٩٦٤ إن شاء الله .

ولكن هناك شيئاً واحداً لا بأس أن أبينه ، مما أراه من مبرر لإبقاء الكلام الأول على حاله ، وهو أن تكون لدى القارئ الكريم صورة ذهنية لتلميذ كان ينظر إلى الأستاذ العلامة بهذه العين وهو حيّ وارف الظل قبل ما يقرب من ربع قرن ، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن خدمته الثقافات العلمية العربية ستين سنة خيراً أبدياً .

أما صديقي القديم العهد « البدوي المثلث » ، وقد اختار لنفسه هذا
اللقب المحبَّب منذ وقت طويل ، فما هو حقًّا بالمثلث ، فوجهه سافر بالفضل
في عالم الكتابة والأدب والتأليف ، ولكنها حلاوة الاسم والمعنى والإشارة
والشارة ، وعدوبة المغزى ، ورقة الدلالة . ففي لفظة « البدوي المثلث »
من هذا مثل ما في « وادي العقيق » و « المنحني » و « الحجون » و « الصفا »
و « الروضتين » و « عكاظ » و « المصاىي » و « جرير » و « الأخطل »
و « الفرزدق » و « رؤبة » و « الراعي » و « جميل » و « كثير » و « عمر »
إلى ما لا نهاية له من الأسماء والكنى التي تعجّ بالخيال المتصوِّع بروائع
الغبر والمسك . إلى مسافات بعيدة تعدّ بالقرون .

ولما تفضّل « البدوي المثلث » سنة ١٩٣٩ بأن سألني أن أضع المقدمة ،
لم يكن اختياره لي مبعثه أنه اختار أولى الأصدقاء ، وأصدقائه أرهاط في
كل حيّ في الوطن والمهجر ، فما اختار في رأيي إلا الضعيف ، ولكنه آثر أن
يختصني بأن أكون من الطائفتين حول الأستاذ العَلَم العَلامة . فشكرت
لصديقي إيثاره هذا ، ولم استطعت لنزعت منه اللثام وتبدّيت ، لأسر من
حالي ، ولما رأيت سنة ١٩٦٤ كشأنه سنة ١٩٣٩ دخلت الهيكل كواحدٍ
من المصاين .

والرسالة الجديدة التي وضعها « البدوي المثلث » هي « إكليل غار »
يوضع اليوم على قبر العلامة الثاوي في زحلة ، تغمّده الله تعالى برضوانه ،
ونفع الأمة العربية بكتبه مخطوطها ومطبوعها ، وأبقى لنا آثاره ، وشدّ

عضدنا بأبنائه ، وكلهم أعلام في الفكر والأدب . دعُ عنك « فوزى »
الخالد فذكره جوّال في الأرض ، ولا أزيد على هذا « فالملثم » متناول
جملة الكلام على بنى المعلوف الذين لم يرحوا المصابيح المنيرة والسرّج
المضيئة في كل هذه الجنبات من عالم العروبة !

ولا بدّ أن « الملثم » مخبر القارئ في ما دعا إلى إرجاء طبع الرسالة
نحو ربع قرن من الزمن ، ولكن هناك ناحية حرية بالذكر . وقد شغلت
من الوقت بضع سنين . فبعد الحرب الثانية ، وأنا وقتئذ في عمان ، قام
« الملثم » برحلة واسعة إلى أميركا الجنوبية (بعد ١٩٤٨) في سبيل الدراسات
المهجرية والوقوف عن كثب على أحوال المهاجرين ، حتى تمّ له وضع
موسوعته الضخمة الفريدة في بابها « الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية »
في جزأين كبيرين ، وانتهى من هذا سنة ١٩٥٧ وطوى هذه الموسوعة على
أخبار المهاجرين ، وقد استقى كل شيء من ينبوعه ، مما أحدث أثراً في
هذا الأدب يبقى على الأيام ، ويسجل من المعالم ، ويقيّد من التفاضيل
والأنباء ، ويثبت من الرسوم والصور ، ويورد من الأوصاف للشخصيات
والشعراء والأدباء والصحافيين والمؤلفين وأرباب الأعمال والصناعات ،
ومشروعات الخير والتهذيب من مدارس ومعاهد ومستشفيات وأندية
ومؤسسات الاقتصاد والعمران كالمصارف والشركات ، مما يتجلّى به
ما غرس الله في المهاجر أو المغترب من خلق الهمة والمطمح ، ونزعة حبّ

المساهمة في إنشاء الحضارة وخدمة المجتمع . وفي هذا السبيل أنفق «البدوى الملمث» سنوات عديدة متتالية في مواصلة أعماله ، وحلّ وترحال ، إلى أن تحقق له ما ابتغى من آمال ، وهذا شأن العاملين من الرجال ، ومن شاء أن يطلع على أخبار الهجرة والمهاجرين والاغتراب والمغتربين ، اطلعاً واسعاً وثيقاً ، فقد أصبح هناك كتابان هما العمدة والسند ، هذا الكتاب « للبدوى الملمث » وكتاب «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» لجورج صيدح^(١) .

* * *

أما الكلام في فضل الموسوعي الأكبر ، وما كتب وطبع ، ونشر وأبقى ، ودون وخلّد ، فعائد إلى صاحب هذه الرسالة «البدوى الملمث» تلميذه الوفيّ وواضع هذا «الإكليل» على قبره» ، فله شكر القارئ أينما كان في هذه الدنيا ، وبورك «الملمث» وما صنع نحو إسكندر العاوم ورأس بنى المعلوف في هذا القرن، المتصوّع ذكرهم في لبنان من

(١) «الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية» هو على ما ترى من سعة وضخامة ، وكتاب «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» للشاعر الصداح ، والكاتب الوضاح الأستاذ جورج صيدح ، هما من خير ما كتب في هذا الباب من أول تاريخ المهاجرة والاغتراب منذ بداية الربع الأخير من القرن الماضي إلى سنة ١٩٥٧ من هذا القرن ، وهذان الكتابان صدرا في بيروت في سنة واحدة ، أما كتاب «الملمث» ففي طبعته الأولى ، وأما كتاب «صيدح» ففي طبعته الثانية وهو سفر ضخّم في أكثر من ٦٠٠ صفحة .

٣١

غسان ، وكأن جوقة الملائكة كانت تنشد يوم اختار الله تعالى الإمام
عيسى إلى جواره :

« وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » .

عجاج نويهض

رأس المتن ، لبنان

١٩٦٤/١/٢١

رشحات قلم . . . !

لعام ١٩٦٤

تمنيت لو أن هذا الكتاب أخذ طريقه إلى المطبعة في عام ١٩٣٩ واستقرّ في يد الموسوعي الكبير عيسى إسكندر المعلوف قبل أن يلحق بربه ! لكن جدّ ما ليس في الحساب باندلاع نار الحرب الثانية ، فساد العالم الذعر . وتولاهم الهلع . فشلّ دولاب المطبعة العربية ، ونهض عامل مفاجئ كان سبباً هاماً في تأخر صدور الكتاب !

ففي عام ١٩٤٠ والحرب الثانية مشتعلة اللظى ، حملتُ الكتاب إلى القاهرة لنشره (فصولاً) في « المقتطف » وحزم بضعة مئات من (تجاربه) في كتاب أقدمه هدية متواضعة لإمام المحققين العلامة المعلوف .

وتركت الكتاب في دار « المقتطف » وعدت إلى القدس المحتلة ، دارة عملي ، فهبط الكنانة الأستاذ عبد الله حلاق صاحب مجلة « الضاد » الحلبية ورأى مخطوطي قيد الصف فحمله إلى الشهباء لنشره على مطابع مجلته هديةً لمشتركها ، لكن جدّت ظروف القاهرة غلّت يده عن الشروع في المشروع ، وآلت بالكتاب إلى الضياع بين ملفات أوراقه !

وفي خريف عام ١٩٦٣ تسلمت ، وأنا في طريق إلى زحلة للسلام

٣٣

على الأستاذ شفيق معلوف . رسالة من شقيقه الأستاذ رياض معلوف جاء فيها قوله : « وماذا فعلت الأيام يا "ملثم" بكتابك عن والدنا المرحوم ؟ » . فمّرت هذا السؤال « اتهاماً » حزّ في نفسى فقصدت الشهباء على عجل وكاشفت الأستاذ الحلاق بالسّر ... وهنا ولجنا مكتبته وشرعنا في البحث والتنقيب ، وبعد جهد بذلناه عثرنا على أصول الكتاب . فهلمنا لهذه الخاتمة ، واستأنفت مسيرى إلى (جارة الوادى) وأرض العنب معانقاً « شفيقاً » ، مدّ الله بعمره ، ومتحدّياً « رياضاً » سامحه الله . وهامساً في أذنه :

« إننى شبلُ أبٍ . يرحمه الله . إذا وعد وفى . وإذا قال أنجز ! »
 أب^(١) كان للمولى سناء ورفعة وللطارف السارى قررى غير فاتر
 وها هو ذا الكتاب (التائه) بين يدى القارئ الكريم . ورجائى أن
 ترضى عنه روح فقيدها العلامة المعلوف . وتتقبله (هدية) متواضعة ،
 اعترافاً بخدمات أسداها للعربية وتاريخها ، واعتزازاً بنوابغ أنجهم لدولة
 الشعر العربى المعاصر .

السيد المثلث

(عمان - الأردن)

١٩٦٤ / ١ / ١

(١) هذا البيت من قصيدة عامرة للبلبلى الأنجيلية في تعداد صفات نوبة بن الحمير .

المدخل . . . !

جاذبت المرحوم عيسى إسكندر المعلوف حبل المراسلة قرابة ربع قرن ،
وتضاعف حي لهذا الشيخ الجليل ونما بعد وفاة نجله « فوزى » فى
البرازيل بعيداً عن والدين فجميعين !

وفى عام ١٩٣٥ جئت لبنان مصطفاً فسرتُ إلى زحلة خفيفاً طائراً ،
ودخلتها فى جلال من فتنة الطبيعة ، وجلال من فتنة الوادى ، وجلال
ما اشتهر عن أهلها من سخاء يد ، وكرم نفس ، وسماحة خلق !

ويممت دارة المعلوف أو قلّ « قلعة التاريخ » فرأيت فى زاوية من
زواياها شيخاً جليلاً اعتمر طاقيه سوداء ، فسرتُ للسلام عليه وألفيته
شيخاً مهيب الهيكل والطلعة ، مهيب المخضر والحديث ، مهيب الصوت
والنبرة ، وقد ذكرنى هيكله بقول « أبى تمام » :

ماذا تقولين فى «شيخ» «فتى» أبداً وهل يكون شبابٌ غير فتیان ؟!

وأخذ شيخ بنى معلوف يتحدث إلى زوّاره بخفوت صوت ونعومة
نبرة ، ويرسل الكلام فى جمل متساوقة تكاد تكون أوزاناً بنفسها ،
ويأتيك بتلك الموسيقى التى تنحدر إلى سمعك فى عذوبة جرس وروعة نغم ،
بأطياب الحديث منظوماً ومثوراً ، وهنا لمع فى خاطرى طيف الكهان

العرب قبل الإسلام وعلى رأسهم « سطيح »^(١) الذي اشتهر أمره في متاحات الجزيرة ، وكان الملوك والأمراء ينهدون إليه متسائلين عن المستقبل وحوادثه ، فكان يحدد لهم وقائعه ، ويكشف لهم في صيف كل عام ، عن حوادث جسام ، لا تلبث أن تقع في زمانها ومكانها !

وتوالى زوراني للعلامة العلم إلى أن لحق بربه ، ومن الإنصاف للتاريخ أن أقول إنه كان تاريخاً حافلاً في سنّ كبيرة ، وشأناً جليلاً في نفس جلييلة ، وقد حباه المولى حظاً موفوراً من طيب المختد وسعة العلم ونضوج الخبرة واتزان التفكير ، أضف إلى ذلك حلاوة الحديث مشفوعة بعذوبة نفس تطامن من تهيبك حين تجلس إليه ، فيروعك منه ذلك الجلال الذي يحفّ به ، حتى إذا بادأك بحديثه اطمأنت نفسك إليه ، ثم ما عتمت أن شعرت بالتقرب منه ، والاستئناس به ، وارتحت إلى ذلك الجلال المؤنس والمهابة الوديعة ، وخرجت من مجلسه وأنت جد مشوق إلى العودة لذلك ينبوع الثرّ ، والتزوّد من حكم وطرائف شيخ جليل زانه الله بضخامة صيت ، وذيوخ سمعة ، لا يستند فيهما إلى منصب زائل ، أو جاه زائف ، وإنما جلال الشيخ ، شهد الله ، من جلال نفسه ، ورفيع مكانته القائمة على قلوب تعزّز بعلمه ، وتعشق مبادئه ومثله العليا !

(١) كان الكاهن « سطيح » ، كما تروى كتب الأدب وأساطير الأولين ، يدرج كما يدرج الثوب ، لأعظم فيه إلا الجمجمة ، وكان وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وقد ولد والكاهن « دشق بن أنمار بن نزار » في يوم واحد ، وكان كل منهما أشبه بالآخر في الكشف عن أنباء الغيب .

وأيقظت زورائق المتتالية لشيخ بنى معلوف مشاعر حبسية فى نفسى ،
فنشطت إلى كتابة هذه الفصول عن مفخرة من مفاخر العرب ، وشامة
من شامات تاريخهم . إنصافاً للعلم وأحباره ، وتقديراً لعملاق خدم
(الضاد) سبعة عقود ونيف ، بذل خلالها الكثير ، وضحي فى سبيلها
بالكثير . وسعى ونسوره سعياً حثيثاً لإعلاء كلمتها ، وزودوا خزائنها
بروائع أقلامهم ، ونفائس نتاجهم الخالد !

الفصل الأول

بنو المعلوف أحفاد الغساسنة

تمهيد :

بعد سيل^(١) العرم اندفعت القبائل العربية من قلب اليمن وبلغت زحوفها سورية . فأعجزت قياصرة الرومان . حكامها في الشرق ولم يقووا على دفعها حتى اتخذوا الغساسنة عمالاً لهم ، فنشأ من هؤلاء ملوك تنصروا ففضبوا قسماً كبيراً من تلك الجهات ، ووقفوا في وجه العائنين بالبلاد فساداً ، ومهّسروا المدن والقرى كبصرى (قاعده باشان) والجابية (قاعدة الجولان) ودامة العليا (قاعدة اللجاة) وغيرها . إلى أن جاء الفتح الإسلامي فاختلفت هذه القبائل النصرانية بالنصارى المقيمين في ضواحي الشام: لكن عنصرهم العربى ظلّ في البطون التي غادر بعضها الشرق ملتحجاً إلى القياصرة . والبعض أسلم والبعض الآخر بقى إلى أن رحل قسم منهم إلى غربى سورية وشمالها ، واتصلوا بابنان في أزمنة مختلفة !

(١) لخصنا هذا الفصل من كتاب (دوافى القطوف في تاريخ بنى المعلوف) .

في عهد الخلفاء الراشدين :

وفي عهد الخلفاء الراشدين تركوا الخراج للغساسنة وجندوا منهم جنوداً ، ولا سيما من كان من الغساسنة في (بصرى) و (دامة العليا) وتركوا لقبهم الغساني ، وسُمِّيَ سكان (دامة العليا) بـ (بنى المعيوف) ^(١) ، ومثلهم فعل الأمويون ؛ لأن قبائل غسان أسهمت في المواقع العربية مثل موقعة مرج راهط إذ أقبل عباد بن يزيد الغساني من حوران في ألف من مواليه ، وانتصرت لمروان بن الحكم الأموي (٦٥ هـ - ٦٨٤ م) ، ولعبد الملك بن مروان ، فقد كانت معظم جيوشه من الغساسنة ، وفي ذلك أنشد « الأخطل » :

مقدماً متى ألفٍ لمنزله ما إن رأى مثلهم جنّ ولا بشرُ

في العهد الأموي :

وفي العهد الأموي تمتع الغساسنة بامتيازات ، لكنّ العباسيين ألغوها زعماً منهم أنّ الغساسنة كانوا ظهراء الأمويين فغيّر سكان (دامة العليا) لقبهم (المعيوف) بـ (المعلوف) لقرب الصيغة .

وكان بنو المعلوف في (دامة العليا) ذوى ثراء طائل وجاء عريض

(١) « بنو المعيوف » تحريف « بنو المعلوف » وفي اللغة العامية يقال : « هو معيوف من الشيء » أى « معنى منه » .

فاتخذوها حصناً حصيناً ، لجودة موقعها ومناعة أبنيتها ووفرة أرضها ، وكانت صيغتهم هناك يمنية ، ولاشتمارهم بثروتهم ونفوذهم هناك ازداد جيرانهم القيسيون حسداً ، لا سيما البدو الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم صيفاً في اللجاة فقاتلوهم مراراً ، وجرت الدماء بينهم سيولاً واستفحل العداء بين (بنى المعلوف) والعرب الفحيليّين .

وصرح حجة المؤرخين المرحوم البطريرك بولس مسعد (١٨٠٦ - ١٨٩٠) المشهور بمعارفه التاريخية ، ولا سيما ما يتعلق بالأسر اللبنانية ، بأن بنى معلوف متحدرون من غسان .

خصائص بنى المعلوف :

ولذا نظرت إلى بنى معلوف رأيت من خصائصهم استدارة القحف ، وشمم الأنف ، وانبساط الجبهة وارتفاعها مع عدم البروز ، وفلقله الشعر أحياناً وسمرة اللون ووسامة القسما وتساوق الملامح وسواد العينين ونجلهما وسواد الشعر ، ونحو ذلك مما هو من خصائص العرب .

واشتهر بنو المعلوف بالحدة والنزق، والأنفة والكرم، وطيب القلب والشجاعة، والإقدام وقرض الشعر، والقناعة بالكفاف والمعيشة في القرى، وإيثارها على المدن والضوضاء .

بقاؤهم في حوران :

وبقي بنو المعلوف . أحفاد الغساسنة . في حوران خاضعين للفتحيين . ونائلين منهم التفاتاً ومكانةً لما رأوا فيهم من المبادئ القويمة والمحافظة على الجنسية ، وكانوا يشغلون كثيراً من المدن القديمة كالملقاء والحابية وبصرى ودامة العليا وأذرع وغيرها ، وتفرق شملهم بزمان الفتح وبعد الدولة العباسية ، لكن قسماً منهم أقطيع العجاجة التي كانت قاعدتها « دامة العليا » فصولحوا على ترك الجزية وسما « بني المعيوف » ولا سيما أن جدّهم ناصر الأوس والخزرج . الذين منهم الأنصار ، ثم أبدل اسمهم بعد أخذ الجزية منهم بـ « المعلوف » . وكانوا هناك ينتمون إلى ثلاثة أصول :

الأول : أصل إبراهيم المعلوف الغساني جد الأسرة المعلوفية .

الثاني : أصل نسيبه جرجس .

الثالث : أصل إلياس .

وهؤلاء الثلاثة من سلالة عيسى بن موسى بن إبراهيم بن جرجس ابن إلياس بن مدلج بن عبد المنعم بن عدى المتصل نسبه بأبي بجيلة أو (جبيلة) الغساني ناصر الأوس والخزرج ، ونشأ إبراهيم . كبير تلك الفروع ، في « دامة العليا » وذاع صيته في تلك الربوع وكُنّي



صورة بوابة « دامة العليا » في حوران ، وهي مسقط رأس الأسرة المعلوفية قديماً .
(من محفوظات « الخزانة المعلوفية » بـزحلة)

بـ «أبي راجح» ، لرجحان عقله وأصاله رأيه ، وكان وافر الثروة ، نافذ الكلمة ، كثير المواشى ، مشهوراً بكرمه ، واتخذ هيكلاً «مينرفا» ، الماثلة أطلاله في تلك القرية إلى عهدنا الحاضر ، (مضافة) وغدت تلك البلدة المنيعه حصناً لمن يلتجئ إليها ، وسكانها يدافعون عن جيرانهم النازلين في اللجاة من الغسانيين وسواهم ، فتأيدت فيها كلمتهم ، واشتهرت سطوتهم ، وتوالدوا وتكاثروا ، وألقوا عشيرة كبيرة فحسدتهم الجيران من العرب وغيرهم ولا سيما الفحيليون من العشائر التي كانت تخيم في اللجاة ؛ وذلك لثروتهم وقوتهم ، والثروة والقوة تثيران الحسد ولا تُصانان إلا بحدة السيف !

ولما كثرت بينهم الوقائع وسفك الدماء ، وكانت العصبية اليمنية والقيسية تزيد نار الحقد ضراماً ، وعرى الوحدة انفصاماً ، دافعوا عن أنفسهم بسيوفهم ، واشتهروا ببأسهم وسطوتهم !

ما جرى لبنى معلوف من حوادث :

كانت حوران تابعة لدمشق في جميع الأحوال التي تقلبت عليها ، ونالت عشائرها لدى بعض حكامها منزلة وكانت قلعة صرخد فيها حصينة نازها الصليبيون ، وملكها الأيوبيون ، واستولى عليها الملك الظاهر بيبرس واعتزل فيها الملك العادل زين الدين لما خلعه نائبه في مصر ، فكان بنو المعلوف مثل غيرهم ، يتقربون من الحكام لدعم نفوذهم ؛ إلى أن حدثت

٤٣

الاضطرابات الأخيرة في زمن دولة الشراكسة المصريين وكثرت القلاقل ، واضطرب جبل السكان ، وتفرقت كلمتهم ، وعاث البدو في البلاد فساداً .

وكان في عشيرة أبي راجح إبراهيم المعلوف ، ابنة جميلة الطلعة اسمها « لطيفة » ، وذات يوم خرجت مع صواحبها إلى بئر في أسفل بلدتها « دامة العليا » ، وكانت المياه شحيحة فيها وفي ما جاورها من القرى ما خلا آباراً في « دامة العليا » احترقها بنو المعلوف لهم ولواشيهم الوافرة ، فكان جيرانهم يستقون منها .

يا ابنة بائع السمن ! :

وبينا « لطيفة » تسرح الطرف بالمناظر الجميلة إذا بابنة من جوارهم قادمة بجرتها لتستقي ، فحيت « لطيفة » ، فردت هذه تحيتها حسب عادتهن ، ثم طلبت منها أن ترفع لها الجرة إلى كتفها ، فتباطأت « لطيفة » ، إذ كانت مسترسلة في الحديث مع صواحبها ، فصاحت بها الابنة قائلة : « أسرع يا ابنة بائع السمن ! » فأثر كلامها في نفس « لطيفة » التي لم تسمع قط كلمة تعيير ، فذهبت إلى أهلها حزيننة كاسفة البال ، ولم تخبر أحداً منهم بما جرى ، لكن إحدى صواحبها قصت عليهم ما وقع .

ونظراً للمنزلة الرفيعة التي تحتلها « لطيفة » في نفوس ذويها أراد هؤلاء

أن يظهروا لجيرانهم واقع الحال . فدعا زعيم بنى المعلوف إلى قريته « دامة العليا » سكان سبع قرى تجاورهم ، وأولم لهم وليمة حافلة ، وكان قد استقدم بعضهم قبل الشروع بإعداد الطعام ، وأراهم أن ما وضعوه إداماً للطعام لم يكن إلا سمن يوم واحد فقط ، فملأوا الدسائع^(١) منه وجلسوا على ركبهم يكتلون الطعام بأيديهم ويلتهمونه ، وقد شمتروا عن سواعدهم ، وتلك عادة معظم العرب إلى عهدنا هذا ، وبعد أن شبعوا وأديرت عليهم القهوة أشار زعيم بنى المعاوف إلى خدامه أن يُريقُوا على الأرض ما بقى فى الأوعية من السمن ، فإذا به شىء كثير ، فنظروا إليهم بتعجب وسألوهم عن سر ذلك لأن من عادتهم ادخاره إلى يوم آخر ، فقال لهم زعيم بنى المعلوف : « إن ابنة فلان منكم ، وأشار إليه ، عيرت ابنتنا » لطيفة « بقولها : ” يا ابنة بائع السمن ! “ فإذا فعل به إذا لم نبعه ؟ وقد حفظنا سمن يوم واحد فقط ، فكان هذا مقداره . والله وهبنا من فضله مواشى كثيرة ؟ » .

فاعتذر الضيوف عن فيعلة ابنتهم ، ولا سيما والدها الذى اشتتاً خجله ، فطابت « لطيفة » بذلك نفساً ، وسرّى عنها وهى تنظر إلى ما جرى من بعض النوافذ !

(١) الدسيسة : الحفنة الكبيرة .

أول الغيث :

وفي صيف عام (١٥٢٠ م) دنا موسم الحصاد ، فغصّت الحقول ،
بالحاصدين ، وقد قرّت عيونهم بالسهمول المنبسطة والتلال المرتفعة ،
متملّين محاسنها ، مستجلين بدائعها !

وذات يوم سارت « لطيفة » على متن جواد أصيل وحولها خوادمها
على الحمير ناقلات الطعام إلى الحصادين في الحقول ، فما ابتعدت عن
« دامة العليا » بموكبها هذا ، حتى فاجأها بعض فرسان الفحيليين ، أعداءُ
بنى المعلوف التقليديون ، وهمّوا باختطافها ، فساورها الهلع ، ولم يلبثوا أن
أحدقوا بها . فلم تقوَ على الهرب ، ولكنها دافعت عن نفسها بشجاعة فلم
يلحقوا بها أذى ، لكنهم استوقفوا خوادمها وأكلوا ما يحملن من الطعام
وهي تنظر إليهم من بعيد نظرات الغضب إلى أن فرغوا من الطعام فساروا
في سبيلهم وتركوها موغرة الصدر ، حاسبةً ما أصابها وخوادمها تحدياً من
الفحيليين لقومها وتحاملاً عايمهم ، فأشارت إلى الخوادم أن يملأن
الأطباق من بعر الجمال ، ويغطينها ويستأنفن المسير ، وبعد لأى
وصلت بموكبها إلى محاصد قومها ، فأقبل أحدهم عليها محمياً كالعادة ،
فراها كثيبة النفس ، مكفهرة الوجه ، تترقق في عينيها السوداوين دموع
الحزن ، ثم تناول الأطباق ورفع عنها الغطاء فإذا بها مترعة بعراً . . .
فسأل « لطيفة » : « ما هذا يا ابنة العم ؟ » فقالت : « هذا طعام من

لا يصون كرامة عشيرته ، ولا يذود عن حوضه بسلاحه ! » ثم أجهشت
بالبكاء وأنشدت بلسان ليلي بنت لكيز الوائلية :

ليت للبراق عيناً فترى ما أقاسى من بلاء وعنا
يا كليبا ، يا عقيلاً ، إخوتى يا جنيداً أسعدونى بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم بعذاب النكر صباحاً ومسا
قل لـ « غسان » فديتم شمرؤا لردى الأعداء تشمير الوحي^(١)
واعقدوا الرايات فى أقطارها واشهروا البيض وسيروا فى الضحى
يا « بنى المعلوف » سيروا وانصروا وذروا الغفلة عنكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم وعليكم ما بقيتم فى الدنا

فما أتمت « لطيفة » إنشادها حتى سالت عيناها بالدموع ، واجتمع
حولها إخوتها وبنو عمويتها وأتباعهم ، فقصّت عليهم إحدى خوادمها
تفصيل ما وقع ، فحرك ذلك ساكن غيظهم ، وتأكدوا أن أعداءهم
الفحيليين الذين سرّحوا مواشيهم ذلك اليوم فى زروعهم ومنعوهم وأهانوهم ،
هم الذين قصدوا الإيقاع بـ « لطيفة » ، فعقدوا اجتماعاً فى تلك الأمسية
أقروا فيها ، بعد جمع الغلال وبيعها مع مقتنياتهم ، الفتك بخصومهم
وترك بلادهم ، قاصدين لبنان للطمانينة التى سادته إبان الفتح العثمانى ،

(١) الوسى : السرعة .

لكن ثورة الغزالي^(١) الشركسي ، نائب دمشق في تلك السنة ، أحدثت اضطراباً في حوران وما يجاوره .

إلى لبنان :

شرع بنو المعلوف في بيع بعض مواشيهم وأراضيهم وحالفهم الغلاء الذي حدث في عام (١٥١٩ م) وارتفاع أسعار المواشى — كما ذكر المرحوم البطريك أسطفان بطرس الدويهي في كتابه « تاريخ الأزمنة » — وقصدوا لبنان متلفتين إلى حوران ، موطنهم الأول ، ومنشدين أنفسهم قول الشريف الرضي :

ولقد وقفت على ربوعهم وطاولها بيد البلى نهبُ
فبكيتُ حتى ضجَّ من لَعَبٍ نضوى ولسج بعدلى الركبُ
وتلفتُ عيني فهد خفيتُ عني الطلولُ تلفت القلبُ

واجتمعوا أولاً في سهل البقاعين وبعلبك وأنسوا بمنظره الفسيح واتخذوا قرية سرعين^(٢) موطناً لهم ، لكن الأيام لم تصف لما كان يحدث بينهم وبين بعض المتأولة من المواقع ولا سيما عرب البقاع ، وفي عام (١٥٢٦ م) صمم بنو المعلوف على مبارحة (سرعين) إلى (جبة بشرى) ومن هذه توزعوا في لبنان الشمالي ودومة البترون وسائر أنحاء لبنان .

(١) روى البكري في تاريخه أن الغزالي الشركسي ، نائب الشام ، انتهر موت السلطان سليم وادعى الملك وخطب لنفسه واستولى على قلعة دمشق فكثرت القلاقل إلى أن جاء فرحات باشا من الآستانة وأخذ ثورته وأمسكه قرب الصالحية وقطع رأسه وبعث به إلى الآستانة .
(٢) سرعين : قرية في قضاء بعلبك .

الفصل الثانى عمسى إسكندر المعلوف نشأته - دراسته - أعماله

نشأته :

فى الحادى عشر من نيسان ١٨٦٩ أبصر شيخنا المعلوف النور فى قرية « كفر عقاب » . من أعمال المتن بلبنان ، وتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة قريته ، لكن « نفس عصام » لم تقنع بالأبجدية والمزامير فى مسقط رأسه . بل حملت « عصاماً » على الرغبة والطموح ، فانصرف المعلوف إلى البحث والمطالعة والتنقيب وكان « دودة كتب ! » كما يقول الأميركيون فى أمثالهم ، ولم يفتر لحظة عن التنقيب فى شتى المظان . حتى أصبح بعد حقبة من الزمن علماً من أعلام المعرفة الأنخيار ، الذين أسهموا فى بناء صرح النهضة الأدبية المعاصرة فى العالم العربى . وما زرتة يوماً إلا ألفتته مُنقباً فى المجلدات ، مدققاً فى الملفات ، وهو ثابت ثبات الهرم الأكبر . وقد لا يعدله فى عصاميته وجلده على البحث والاستقصاء إلا المرحوم جرجى زيدان ، منشئ مجلة « الهلال » وصاحب المؤلفات الشهيرة .

دراساته :

درس الفقيه مبادئ العلوم في قريته ، ثم درس سنة واحدة في مدرسة الشوير ببلبنان ، مقابل قريته ، ودرس الآداب العربية على نفسه ، وانكبّ ، منذ حداثته ، على المطالعة وجمع الكتب والمخطوطات وله في هذا المضمار باع طويلة ، كما ستقرأ في الفصول التالية !

وكان رحمه الله يحسن ثمانى لغات حية درسها على نفسه ، هي : العربية ، الإنكليزية ، الفرنسية ، اللاتينية ، اليونانية ، التركية ، الفارسية . العبرية .

وهو من صفوة من يتمثل فيهم لقاح الثقافتين الشرقية والغربية .

في حقل التعليم :

كان أول عمل زاوله الفقيه التدريس في مدرسة كفر عقاب للآباء اليسوعيين بضع سنوات ، ثم عين عام ١٨٩٣ معلماً للأدب العربي في (مدرسة كفتين) ببلبنان الشمالى فأمضى فيها أربع سنوات وصنّف هناك بعض مؤلفاته وأنشأ ثلاث روايات تمثيلية شعراً .

وفي عام ١٨٩٧ أقفلت (مدرسة كفتين) أبوابها فعين مديراً لمدرسة دوما (البترون) وصرف مدة يرعى شؤونها ، وفي عام ١٨٩٨ عاد إلى بعبدا^(١) واقرن بالسيدة عفيفة معلوف ، كريمة الزعيم الزحلى الشهير

(١) مقر متصرفية لبنان الشتوى .

إبراهيم^(١) (باشا) نعمان المعلوف واستقرّ في زحلة (جارة الوادي) وزاول التجارة .

وفي عام ١٩٠٠ انتدب للتدريس في (الكلية الشرقية) بزحلة فكان أستاذ العربية والإنكليزية والرياضيات ، وظلّ في عمله الدراسي هذا حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

وفي (الكلية الشرقية) أسس عام ١٩٠٣ جمعية أدبية أسماها : (جمعية النهضة العلمية) ولبت في رئاستها لغاية عام ١٩٢١ وقد شجّع طلابها على الخطابة وقرض الشعر ، وسار في تدريسه الطويل على نهج (المشجّرات) في تقسيم العلوم والتمرّن على تحليل القواعد النحوية ووضع قواعد للإعراب البياني بأسلوب جديد مبتكر ، وزوّد بلاد الشام مدة تدريسه بأفواج من الشبان المسلّحين بثقافة عالية ، وقد واصلوا دراستهم المهنية وأقبلوا على الطب والصحافة والمحاماة ، وانتشروا في مواطن شتى من الوطن والمهاجر .

(١) ترعرع في بيت عريق اشتهر بالوجاهة والثراء وأنجب للأدب العربي المعاصر الشعراء الأعلام :

- (أ) قيصر معلوف (١٨٧٤ - ١٩٦١) ،
- (ب) جميل معلوف (١٨٧٩ - ١٩٥١) ،
- (ح) ميشال معلوف (١٨٨٩ - ١٩٤٢) ،
- (د) شاهين معلوف (١٨٩٠ - ١٩٥٤) ،
- (هـ) فدعا معلوف (١٨٩٩) حتى يرزق ومقيم في سان باولو (البرازيل) .

وبعد نشوب الحرب الأولى لزم داره في زحلة وعكف على تدريس أنجاله وبعض زملائهم ، واشتغل بمؤلفاته وترتيب مكتبته ، جامعاً فيها نفائس المطبوعات والمخطوطات .

في حقل الصحافة :

لم تقف جهود شيخ بني المعلوف عند حد من حدود العلم والثقافة ، بل زاول الصحافة وهو دون العشرين من عمره ، وأنشأ لطلابه في (الكلية الشرقية) بزحلة جريدة (المهدب)^(١) التي كان يطبعها على (الجيلاتين) ثم صارت تُطبع بالحروف المهداة إليه ، وكانت مسرحاً لأقلام تلامذته ، وبعد أن حرّرها فترة استقال وعين مدرساً في (الكلية الأسقفية الكاثوليكية) بزحلة .

وفي عام ١٨٩٠ انتدبه المرحوم إبراهيم الأسود صاحب جريدة (لبنان) في بعثدا لتحرير جريدته وإدارتها وتصحيح مطبوعات (المطبعة العثمانية) في بعثدا ، وكان يعاونه في تحرير (لبنان) المرحوم جرجس زوين^(٢) ، وبعد فترة توفي هذا فاستقلّ المعلوف بتحريرها ونشر فيها مقالات أدبية وتاريخية وعمرائية .

(١) صدر العدد الأول في زحلة عام ١٩٠٦ .

(٢) محرر (البشير) سابقاً .

وفي عام ١٩٠٨ انتدبه المغفور له البطريك غريغوريوس حداد^(١)؛

(١) ولد في « عيه » بلبنان عام ١٨٥٩ وكانت « عيه » مفر النهضة العلمية في لبنان التي أضرم حذوتها المرسلون الأمريكيون بنأسيس أول مدرسة داخلية فيها ، فانتسب لها هذا البطريك وهو في الثانية عشرة من عمره وبرع فيها بالعلوم اللغوية والرياضيات وفي عام ١٨٧١ انحدر إلى بيروت واتصل بالمطران غفرئيل شاتيللا فأدخله المدرسة الإكليريكية التي أنشأها فدرس على اللغوي الشهير المعلم شاهين عطبة وغيره وفي عام ١٨٧٥ اتحذه المطران غفرئيل كاتم أسراره ، وفي عام ١٨٧٩ سامه تماساً وفي عام ١٨٩٠ سيم أسقفاً لطرابلس الشام ، وكانت باكورة أعماله إصلاح (مدرسة كفتين) الأرثوذكسية .

ولما توفي البطريك ملاطيوس الدوماني الدمشقي اتجهت الأنظار إلى المطران حداد ، فانتخب بطريكاً ، وفي صيف عام ١٩٠٦ شجع النهضة العلمية وأسس مجلة (النعمة) ، وفي عام ١٩١٣ سار إلى روسية بدعوة من القيصر نفولا الثاني ولقى فيها حفاوة بالغة ، وعاد إلى دمشق ليصطل بئار الحرب العظمى وليطوف مع شماسه وقواسمه بمجموع الجياع المطروحين في الأزقة والشوارع ، وليحملهم إلى الدار البطريركية والمدرسة التي تقابلها ، ويعتنى بإعالمتهم وطبهم وكثيراً ما كان يطعمهم بيده غير ناظر إلى مللهم ونحلهم وجنسياتهم ولهذا كنى « أبا الفقراء » . وما يؤثر عنه أن الراهبة المنوط بها إطعام الجياع جاءت يوماً متذمرة من عدم إمكانها إعالة حموع الجياع لقللة الطعام وكثرة الآكلين واقترحت عليه أن يقتصر على أبناء ملته الأرثوذكسية فأجابها : « غداً نرسل إليك الخبز وفد كتب على كل رغيف اسم آكله ومذهبه فأطعمى كلاً ما يخصه » .

وفي اليوم الثاني جاءها الخبز كالعادة فتعجبت من ذلك وعادت تذكر البطريك بوعده فقال لها : « إن الله أعطانا الخبز لنأكله دون النظر إلى الملل والأجناس وعلينا أن نبذله للجميع ! » فخلجت الراهبة وعادت أدراجها نوزع الخبز على الجياع ، وفي ذلك قال الشيخ عبد الرحمن قريظم اليروقي مادحاً هذا البطريك العربي النساني الإنساني في ديوانه المطبوع :

ومعجزة المسيح بدت قديماً بمائدة وحيرت العقولا
فتقرى للألى نزلت عليهم ومن قد شاهدوا (عيسى) الرسولا =

الإدارة المدارس الأرثوذكسية بدمشق فأسهم أولاً في تحرير (العصر الجديد) ^(١) ومجلة (النعمه) ^(٢) التي بلغت مستوى عالياً من الرقي والازدهار .

= ولو جاءت لنا في الحرب يوماً
بحوت واحد حازت قبولا
ولكن ناب هذا البحر عنها « أبو الفقراء » من أضحي وكيلاً
صفات كلها غسر حسان ولست أرى لها أبداً مثيلاً !
وما يؤثر عن غبطته اعترازه بنسبه العربي ، ولما بايع المغفور له الملك فيصل الأول في دمشق إثر انتخابه ملكاً لسورية قال غبطته مخاطباً المليك العربي : « بيننا وبينكم عهد في هذه القاعة لا تتيب عن ذاكرتكم الشفافة ، فإذا كنتم لا تزالون عليها فإننا عليها لراسخون ! » وظل غبطته على ولائه للمليك الهاشمي حتى بارح دمشق إلى حيفا فصر ، وقد سبقه بعربته إلى محطة الكسوة وودعه بالقبلات والدمع السخين وأسعفه بالمال ليستعين به في تلك الساعة الحرجة .

وفي أعقاب عام ١٩٢٨ استأثرت به رحمة ربه فنقل من بيروت إلى دمشق حيث دفن في مدافن البطارقة الأنطاكيين أمام الكاتدرائية المريمية ، وعندما بلغ نعشه بلدة (برالياس) في البقاع وقف الدكتور محمد أمين قرعون يؤن الراحل الكبير وارتحل خطبة نفيسة قال فيها : « والله لو أن الإسلام يجيز لي أن أعتقد بنبي بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) لقلت إنك نبي ! » وقال الشيخ مصطفى الغلاييني من خطاب مؤثر ألقاه في حفلة تأيينه ببيروت : « لقد ادعاك النصرى والمسلمون والكل يزعم أنك بطريكه أما أنا فأقول : إنك لم تكن بطريكه طائفة من الطوائف وإنما أنت بطريك الإنسانية الفاصلة ! » .

وحسب غبطته فخراً جهاده في استعادة الكرسي الأنطاكي إلى أصحابه العرب بعد أن احتكره الإكليروس اليوناني مئة وخمسة وسبعين سنة (١٧٢٤ - ١٨٩٩) !
(١) أنشأها المحامي المرحوم ناصيف أبو زيد وصدر العدد الأول منها في ١ تشرين من عام ١٩٠٨ .

(٢) أنشأها في دمشق المغفور له غريغوريوس حداد بطريك الكرسي الأنطاكي وصدر العدد الأول في ١٥ حزيران من عام ١٩٠٩ .

وكان قلم المعلوف يسخو عليها بمقالات علمية وأدبية واجتماعية نفيسة ؛ فيها تعريف بالخطوط العربية وتراجم المشاهير ونحوها مما هو مبثوث في تضاعيف مجلداتها الستة (١٩٠٩ - ١٩١٤) وعلى الخصوص خواطره وانطباعاته في رحلته الأولى إلى حلب عام ١٩٠٩ بحثاً عن نوادر الخطوط ، فتفقد مكتباتها ، وابتاع نوادر مخطوطاتها ، ولا سيما خزانة آل الأنطاكي الثمينة ، فابتاع منها قسماً كبيراً وأهم ذلك (تاريخ البطارقة) للعلامة المرحوم مكارئوس ابن الزعيم صاحب الرحلة إلى روسيا^(١) .

وفي هذه المجلة كتب المعلوف تاريخ الصحافة من أول نشأتها إلى

سنة ١٩٠٨ .

وفي تموز عام ١٩١١ أنشأ المعلوف مجلة (الآثار) وكانت الفريدة من نوعها في العالم العربي بمباحثها الأثرية ، وعلى صفحاتها تجلى نبوغه وذاع صيته في الأوساط العلمية ، ومن المؤسف أن هذه المجلة الراقية لم تعمر ، قبل الحرب الأولى وبعدها ، أكثر من خمس سنوات .

ولم تقتصر روائع المعلوف على ما أسس من صحف وما نشر من مقالات ، وما صنف من مؤلفات ، بل كانت أمهات الصحف والمجلات في العالم العربي تتسابق إلى نفثات قلمه ، فكتب في « المتططف » و « الهلال » و « المشرق » و « النعمة » و « المسرة » و « البشير »

(١) راجع مجلة (النعمة) الدمشقية (١ : ٢٢١) .

٥٥

و « الضياء » و « مجلة سركيس » و « ميرفا » و « مجلة المجمع العلمي العربي » وغيرها من المجلات الراقية في الوطن والمهجر مقالات يحسبها أعلام النهضة الحديثة مصدراً هاماً من مصادر الأدب العربي والتاريخ في سائر عهوده ، ولو قُدِّرَ لتلك المقالات أن تحزم في مجلدات لربحت الخزانة العربية ربحاً ضخماً .

الفصل الثالث

مؤلفاته - محاضراته - شعره

المعلوف مؤلفاً :

خام المعلوف . مدة خمسين عاماً ونيف ، على الخزنة العربية
عشرات الكتب القيمة والأبحاث الطريفة ، وأتيح لبعضها النشر وظل
البعض الآخر يرقبُ فرج الله !

(١) آثاره المطبوعة :

١ - الكتابة : بحث تاريخي أدبي ضمّته أبحاثاً في الخط واللغة
والإنشاء . طُبِع الجزء الأول منه سنة ١٨٩٥ والأجزاء الثلاثة الباقية
لا تزال محفوظة .

٢ - لمحة في الشعر والعصر : مثال من كتاب (سجد الفريخة . في
المقطعات الفصيحة) المطول في الشعر والشاعر وفنون الشعر للمعلوف
طبع سنة ١٩٠٢ .

٣ - الأخلاق مجموع عادات : محاضرة ألقاها في (الكلية الشرقية)
بزحلة سنة ١٩٠٢ ، وقد طبع مؤخراً .

٤- دوانى القتلوف فى تاريخ بنى معلوف : سفر كبير فى تاريخ حوران وأسرها ، لا سيما الغساسنة . وفى تاريخ لبنان وسورية وفلسطين وتاريخ المئات من أسرها . وندوين الكثير من عادات أهلها وحوادثهم ، طبع سنة ١٩٠٧ وختمه بأبيات منها قوله :

بفضل ربى سالمتى الظروف لنسخ أوراقى وجمع الحروف
وُفقتُ فى تنسيق تاريخنا وقد حوى من كل فنّ صنوف
مؤلفٌ موضوعه أسرى وأسرٌ ذكرتُ منها الألوف

٥- الأم والمدرسة : محاضرة ألقاها فى (الكلية الشرقية) بزحاة سنة ١٩١٠ وطبعت مؤخراً .

٦- تاريخ مدينة زحاة : وفيه أبحاث كثيرة فى عام الأساطير (المثولوجيا) وتحليل أسماء الأماكن وتفاصيل جغرافية وتاريخية وعمرانية فى سورية المحوفة ، طبع سنة ١٩١١ .

٧- مجلة الآثار : نشرت فى ثلاثة مجلدات (١٩١١ - ١٩١٤) وعطلت عند نشوب الحرب الأولى وحوت مباحث أثرية ولغوية وتاريخية وأدبية ، ونشر فيها تاريخ الأمير فخر الدين المعنى ، حاكم لبنان ، الذى ألفه الصفدى بجواش واستدراكات مع رسم الأمير النادر ، وتميزت هذه المجلة بوصف المخطوطات النادرة والمباحث الأثرية والتاريخية فى بلادنا .

٨- معارضات قصيدة (يا ليل الصب) للحصرى القيروانى ،

وقد ضمتها كلمة في المعارضة لغةً واصطلاحاً ، وتراجع قدماء المعارضين وإعراب مطلع القصيدة الأصلية ، ثم المعارضات مرتبة حسب مواطن الشعراء ، طبع الجزء الأول منها سنة ١٩٢١ .

٩- تاريخ الطب قبل العرب : محاضرة ألقاها في ردهة (المعهد الطبي العربي) بدمشق سنة ١٩١٩ ونشرت في مجلة المعهد المذكور وطبعت سنة ١٩٢٤ .

١٠- صناعات دمشق القديمة : محاضرة ألقاها في ردهة (المجمع العلمي العربي) بدمشق سنة ١٩٢٢ وطبعت في نشرة الغرفة التجارية وجمعت في رسالة مستقلة سنة ١٩٢٤ .

١١- تاريخ الطب عند العرب : محاضرة ثانية ألقاها في (المعهد الطبي العربي) في دمشق ونشرت في مجلة المعهد الطبي سنة ١٩١٩ وطبعت برسوم طبعاً متقناً سنة ١٩٢٢ .

١٢- الأسر العربية المشهورة بالطب العربي ، وأشهر المخطوطات العربية الطبية : محاضرة أقيمت في المؤتمر الطبي المنعقد بالجامعة الأميركية في بيروت في ٦ أيار ١٩٢٥ وطبعت برسوم سنة ١٩٣٥ .

١٣- تاريخ الأمير فخر الدين الثاني المعني : حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ - ١٦٣٥ ، طبع مصوراً في جونية (لبنان) سنة ١٩٣٤ مزيناً بستين رسماً نادراً بمقدمة إفرنسية وبحوث ذات شأن ، وقد صرف المعلوف

على تصنيفه وجمعه أكثر من ربع قرن، وراجع في سبيله طائفة من المؤلفات القيمة في لغات متعددة .

١٤- ترجمة الأمير سيف الدولة بن حمدان : ممدوح المنبهي وحاكم حلب ، نشرت في ذيل رواية (الأمير سيف الدولة) وطبعت سنة ١٩٢٧ .

١٥- المبكيات : مجموعة مرآة السيدة مهية ابنة يوسف أبي علي المعلوف ، زوجة إبراهيم الأسود صاحب جريدة (لبنان) ، طبعت سنة ١٩٠٣ .

١٦- العُزُر التاريخية ، في الأسرة اليازجية : مختصر من كتاب مطول ، نُشر المختصر في (مجلة الرسالة الخلصية) بصيدا وطبع مستقلاً سنة ١٩٤٤ والجزء الأول في تواريخ المشايخ اليازجيين ، والجزء الثاني طبع مستقلاً سنة ١٩٤٥ وضمّ تواريخ أصهار اليازجيين وبناتهم وأصهار أصهارهم .

١٧- مجموعة في (مقالات عيسى إسكندر المعلوف وأولاده وأنسابه) : تقع في ١٧ مجلداً .

١٨- تذكّار مرور سنة على وفاة الطيب الذكر البطريك غريغوريوس الرابع الأنطاكي الأرثوذكسي : كراس مصور في ترجمته وما قيل فيه حياً وميتاً .

١٩- تاريخ لبنان : طُبِع في الحرب العالمية الأولى وفيه بحث عن

الأخلاق والعادات اللبنانية ومشاهير لبنان ومؤلفيه .

٢٠ -- تاريخ الأمير بشير الشهابي ، حاكم لبنان .

٢١ -- الفلسطينيون عرب .

٢٢ -- نوادر الحرب الكبرى .

بالإضافة إلى معاجم وكتب تاريخية وعلمية وأدبية وطبية ومدرسية لم يطبع اسمها عابها تواضعاً منه .

٢٣ -- معجم تحليل أسماء^(١) الأماكن : على حروف المعجم مع تفسير معاني تلك الأسماء واللغات المنحوتة منها وثيء من تواريخها مما يصوّب بعض الروايات الشاذة والأغلاط الشائعة التي أوردها المؤرخون عن أصلها .

(ب) آثاره المخطوطة :

١ - الأخبار المدونة والمروية ، في أنساب الأسر الشرقية : تقع هذه الموسوعة الكبرى في أربعة عشر مجلداً كبيراً مخطوطاً ، تتضمن مقدمة مطولة في علم الأنساب وفائدته في مجلد مستقل ، وبعدها أربعة عشر مجلداً في تواريخ الأسر الشرقية في لبنان وسورية وفلسطين والأردن والعراق ومصر والمغرب وإيران وآسية الصغرى ، والمهاجر من سائر المذاهب والطوائف

(١) بعد وفاة العلامة المترجم له أشرف نجله الأستاذ رياض معلوف على نشر هذا المعجم فصولاً في مجلة (المشرق) بيروت .

على اختلاف المناشئ والمواطن والأنساب بمشجرات أشتائها أصولاً وفروعاً
وذكر حوادثها وتراجم مشاهيرها .

ولقد بنى المعلوف أبحاثه على العلوم العصرية في تمييز الأجناس كعلم
طبائع الشعوب وطبقاتها ، ودار البحث حول كل أسرة على ثلاثة
محاور هي :

(١) الأسرة وموطنها وتسميتها وهجرتها وفروعها .

(٢) نسبة الأسرة من أعلى جدّ معروف إلى من مات من الأعمام ،
صغيراً أو عازباً أو عقيماً .

(٣) تاريخ حوادث كل أسرة وتراجم مشاهيرها ، مميزة بتاريخ
الأيام والشهور والسنين ما أمكن على مبدأ (ما لا يدرك كله لا يترك
جمله ! » .

وكان المعافى في حياته يتطلع إلى موسوعته المخطوطة هذه بتحسر
وتلهف ، وكالما تطلع إليها وإلى مجلدات مخطوطة « الدرّ النضيد » في
أدب المفيد والمستفيد « لمؤلفه الشيخ بدر الدين الغزي العاملي قال متحسراً :
شكوتُ وما الشكوى لمثل بعادة ولكن تفيضُ الكأسُ عند امتلائها !

ومن دواعي الأسى أن هذه المجلدات ما زالت تنتظر خروجاً من
الظلمات إلى النور لتعرف طريقها إلى هواة التاريخ العطاش إلى مضامين
تلك الموسوعة العميقة الغور ، المترامية الأطراف !

٢- محاضراته في المجمع العلمي العربي بدمشق وحلب وحمص
وزحلة وبيروت والقاهرة .

٣- شحذ القريحة ، في المقطعات البليغة الفصيحة : في مجلدين
كبيرين ، الأول : في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، وقد ضمنه أشهر
ما قيل في هذه الأبواب عند الإفرنج والعرب ، وبحثاً في النبوغ والذكاء
وفي الحسّ والخيال وفي القريحة والذوق وآداب الشاعر وما يحتاج إليه الناظم
في توليد المعاني ، إلى كثير من البحوث المختلفة التي تساعد على (شحذ
القريحة) وترهيف النظم والتفنن بالشعر ، كل ذلك بأساليب جديدة
وقوال عربية بليغة :

الثاني : في ما أنشد من أشعار في العالم العلوي وفي الفلسفة على تباين
أنواعها ، مرتباً على أبواب ، من السماء إلى الأرض ، وقد ضمنه أشهر
ما قيل عند العرب والعجم بلغات عديدة في تلك الأبواب ، قديماً وحديثاً ،
لا سيما في المكتشفات الجديدة والمحترعات العصرية .

وهذان المجلدان أشبه ما يكونان بمعجم للشعر والشعراء ، يجد الطالب
فيهما ضالته المنشودة ، ويغنيانه عن البحث والتنقيب ، ويقرّبانه من
الموضوع الذي ينشده !

وأبرز ما تضمنه ديوان (شحذ القريحة) فصل في وصف الإنسان
والحيوان والطبيعة والنبات ، وجاءت المعاني المتداولة فيه متساوقة ، يرمى كل
منها إلى غرض على تعدّد الرماة .

وأحد فصول هذا الديوان فصل مطول بعنوان « التذكرة المعلوئية » وفيه
حلل الفقيده خصائص العربية ومميزاتها ، لا سيما باب النحت وأجراس
الكلام (الأرموني) والتربية والتعليم عند العرب وغيرها من الأبحاث
الطلية .

٤ - تحفة المكاتب ، للمعرب والكاتب : في مجلد واحد اشتمل على
مباحث لغوية في الوضع والتعريب .

٥ - معجم الألفاظ العربية العامية والدخيلة : مرتب على حروف
المعجم بحسب أوائل الكلمات لا بحسب اشتقاقها ، تسهيلاً لمراجعتها ، وفيه
تحقيق لأصول الكلمات الفصيحة التي حُرِّفَها أو صَحَّفَها العوام ، وأصول
الكلمات الوضعية العامية أو المعرَّبة عن اللغات ووضع الفصيح لها من
كلام العرب ونحو ذلك ، وله مقدمة في اللغة العامية وآدابها وفنونها وما أُلِّفَ
فيها منذ القديم إلى اليوم في مجلد ضخم .

٦ - معجم المصطلحات العامة : أي ما ورد في التواريخ والأخبار
من الكلمات والعبارات الغريبة التي لم تذكرها المعاجم وشرحها وبين
أصولها ومعانيها ومصطلحاتها في مجلد على حروف المعجم .

٧ - أهم خزائن الكتب العربية في العالم : عدة مجلدات في وصف
كل خزانة في الشرق والغرب ونواذرها .

٨ - مغاوص الدرر ، في أدباء القرن التاسع عشر : مجلد كبير في
تراجم رجال العصر المتوفين في كل قطر وآثارهم ومؤلفاتهم .

- ٩ - الدر الثمين ، في أدباء القرن العشرين : وهو ذيل لمعاوص الدرر وفيه تراجم الذين أدركوا القرن العشرين واشتهروا بآثارهم الأدبية .
- ١٠ - تاريخ سورية المحوفة أو لبنان الكبير : مجلد ضخيم تناول فيه تاريخ البقاع و بعلبك . وحلل أسماء المدن والقرى بحسب الأساطير القديمة (الميثولوجيا) وترجم فيه العلماء ووصف الحوادث .
- ١١ - نوابغ النساء : أبحاث جلييلة عن المرأة ونهضتها وتراجم الأديبات الشهيرات عند الإفرنج والعرب ووصف الزواج والطلاق وتربية الأولاد .
- ١٢ - الطرق الأدبية ، في تاريخ اللغة العربية : ثلاثة مجلدات في آداب العربية وتاريخها وفنونها وآثارها ، وقد جاءت في أطول ومطول ومختصر ، تسهيلاً لمطالعة العالم والأستاذ والطالب .
- ١٣ - أسرار البيان : كتاب مدرسي في علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . بأسلوب عصري ، وفيه تمارين وأمثلة وتفصيل بدیعة التبویب من شأنها ترسیخ القواعد فی ذهن الطالب .
- ١٤ - الأسلوب النديم ، في التربية والتعليم : في علم الثقافة وعلى نمط مدرسي مفيد .
- ١٥ - نفائس المخطوطات : عشرة مجلدات تتضمن وصف ما رآه المؤلف من المخطوطات ومؤلفيها والنسخ الموجودة في المكتبات ، وهل طبعه المستشرقون ؟ أو ترجموه ؟ أو ما عرفه بواسطة إخوانه .
- ١٦ - ما رأيت وما سمعت ؛ في مجلد وصف فيه نكبات الحرب

الكبرى بأسلوب جذاب . ولخص الحادثة بإيجاز . واستشهد بأقوال الشعراء والمؤرخين في أمثالها .

١٧ - المكتبة التاريخية والمؤرخون والمنون التاريخية ولا سيما (فلسفة التاريخ) أو (النقد التاريخي) في مجلدين كبيرين . الأول : في علاقة علم الآثار القديمة بالتاريخ وأغراض التاريخ عند العرب والإفرنج وما يتعلق بهذه البحوث .

الثاني : في المؤلفات التاريخية في الأنساب والحوادث ووصف المدن والبلدان واسمه (منتهى العجب في تاريخ العرب) وهذا الجزء مرتب على الحروف الهجائية .

١٨ - تاريخ قيس ويمن .

١٩ - التذكرة المملوكية : في عشرة مجلدات كبيرة . دون فيها بحوثاً اختصرها غيره أو جهلها بعضهم ، مما فيه فكاكة ولذة وفائدة للمطالعين ولا سيما في التاريخ والآداب والفنون وعلم الاجتماع والعمران والآثار ، ودرس بإسهاب مشاهير الشعراء من عرب وإفرنج .

٢٠ - تاريخ الزجل وأقسامه وأنواعه .

٢١ - شرح المتن ، في تاريخ قضاء المتن^(١) : دون فيه أقوال المؤرخين المختصرة عن هذا القضاء وشرحها وأضاف إليها تفصيلات وافية مما وقف عليه من مخطوطات وأوراق نادرة ، وترجم رجاله المشهورين وأنسابهم .

(١) قضاء المتن : يقع بين قضائي الشوف وكسر وان لبلنان .

٢٢ - معجم تحليل أسماء الأشخاص : فى مجلد على حروف المعجم وفيه تفسير أسماء الأعلام الشخصية وأصولها ومعانيها من اللغات الشرقية والغربية .

٢٣ - تاريخ أنطاكية الدينى والمدنى : فى مجلد كبير يشتمل على وصف أنطاكية ومدنها وقراها وذكر تواريخها الدينية والمدنية للطوائف المختلفة .

٢٤ - تاريخ وادى التيم وجبل القلمون : فى مجلد تضمن فوائد كثيرة عن هذين الإقليمين وتواريخ مدنها ورجالهما وآثارهما .

٢٥ - تاريخ حوران : فى مجلد تناول فيه مدنها وآثارها والأسر التى نشأت فيها .

٢٦ - تاريخ حضارة دمشق وآثارها : فى مجلد كبير اشتمل على فوائد كثيرة عن هذه المدينة وضواحيها وما يتبعها فى أدوارها التاريخية وما فيها وحولها من الآثار القديمة ، ووصفها وذكر حضارتها ومشاهيرها وآدابهم وتراجهمهم .

٢٧ - رجال الحكومة والأمراء : مجلد كبير ذكر فيه من كان مقرباً من الحكام والأمراء وحائزاً على رتب فى خدماتهم مع لمحة من تراجهمهم ووصف أعمالهم وصفاتهم .

٢٨ - العصريات : مجموعة من الأشعار العصرية لكبار شعراء العصر مع لمحة من تراجهمهم .

٢٩ - لبنان ونكباته : مجلد ضخيم جمع فيه ما حدث من الوقائع والحروب والعصبيات في لبنان ولا سيما الذين كتبوا عنها إما سماعاً أو عياناً ، وترجم كثيراً من أقوال الفرنج في وصفها فاشتمل على أهم الشؤون التي يجب أن تعرف عن لبنان ولا سيما في القرون الأخيرة .

٣٠ - سفر الأحزان : في جزأين :

الأول : في التوديع والفراق واللقاء .

الثاني : حزن الأبد . في رثاء الأهل والولد . وفيه وصف العلامة المفجوع ما نكب به من فقد ولده المأسوف على شبابه « فوزى » وسائر ذويه وأنسابه .

٣١ - يومية الحرب الأولى (١٩١٤-١٩١٨) مجلد وصف فيه ما كان يحدث من الوقائع والأخبار .

٣٢ - تاريخ شهداء الحرب الماضية : مجلد وصف فيه مقتل الشهداء ولحمة من تراجمهم .

٣٣ - نكبات الحرب الماضية : مجلد وصف فيه ما حدث في البلدان والمدن من النكبات في تلك الحرب من الخراب والدمار .

٣٤ - لبنان واللبنانيون : مجلدان في تاريخ مفصل للبنان وسكانه وعاداتهم وأخلاقهم وحكامهم وحوادثهم ، ومنه انتخب أشياء لتاريخ لبنان الذي وضع في الحرب الكبرى ولا سيما (الأخلاق والعادات) و (تراجم المشاهير) وقد جاء سفرهم مفيداً مصوراً .

٣٥ — درّ الأسلاك ، في درارى الأفلاك : شرح لقصيدة فلكية نظمها العلامة المعاوف بتطويل في وصف الثراب والسيارات واكتشافها وما قيل فيها .

٣٦ — رسالة في الموسيقى : دوّن فيها تاريخها وفنونها وأقسامها وأقوال الحكماء والعلماء فيها ، ووصف آلاتها ومشاهير الموسيقيين .

٣٧ — رسالة في التصوير : بحث فيها عن هذا الفن وتاريخه وآدابه ومن اشتهر به وألّف فيه .

٣٨ — أعذب المناهل ، في إنشاء المقالات والرسائل : وضعه بأسلوب حديث سهل اشتمل على تمارين وأسئلة وأمثلة .

٣٩ — مشجرات في العلوم والفنون : لتدريس الطالب والتسهيل عليه .

٤٠ — مجموع رحلات في سورية ولبنان ومصر . بضعة مجلدات دوّن فيها ما شاهده في رحلاته إلى الأقطار الثلاثة من بيوت العلم والآثار وخزائن الكتب والمتاحف والفنون ، مع وصف المدن التي مرّ بها وشاهدها في سفره برّاً إلى مصر .

٤١ — شعر العميان وآثارهم : مجلد صغير اشتمل على تراجم الشعراء العميان وتراجمهم ونثرهم ونظمهم ونواديرهم وعاداتهم وأخلاقهم .

٤٢ — شعر المجانين ، مجلد صغير نقله إلى (التذكرة المعلوفة) وفيه أشعار المجانين وحوادثهم ونواديرهم .

٤٣ — شعر الخلفاء والملوك والأمراء : مجلد صغير دوّن فيه مجاميع

مفيدة مما نظم هؤلاء أو نثروه . مع لمحة من سيرة كل منهم .

٤٤ - ثلاث روايات تمثيلية شعرية غنائية هي :

الأولى : رواية مقتل بطرس الأكبر لولده ألكسيس في روسية .

الثانية : رواية جزاء المعروف . وهي حادثة خزيمة بن بشر مع سليمان ابن عبد الملك الأموي .

الثالثة : إنعجاز الميثاق ، في فدينه إسحاق . وهي رواية ذبح إبراهيم لابنه إسحاق .

٤٥ - بات الأفكار : ديوان شعر المترجم له وهو في فنون الشعر من تشطير وتخميس ونحوهما ، وبعده المدائح والمراثي والمقطعات والتواريخ الشعرية ، والشعر العلي والعنصرى والمترجم عن اللغات . والأناشيد . وله مقدمة مبتكرة في (تأثير الأشعار) من الشطر والبيت والبيتين إلى القصيدة والديوان . وفيها بدائع المنظومات وما كان لها من التأثير .

٤٦ - تاريخ العلوم الفلكية والرياضية : استقرى فيه تواريخ هذه العلوم وتطويعها في كل عصر عند الأمم وما ألفت فيها من البحوث .

٤٧ - تاريخ العصبية عند الأمم : وصفها بالتفصيل عند الأمم ، حتى عصرنا عند العرب والفرنج وحوادثها لا سيما تاريخ قيس ويمن ، وما اشتهروا به في بلادنا من حوادث وضحايا .

٤٨ - الأمثال العربية العامة : مجموعة رتب فيها الأمثال على حروف الهجاء بحسب أوائلها .

- ٤٩ - شرح الأمثال العربية العامة : في ثلاثة مجلدات ذات فهارس هجائية. اشتملت على ما يحاكي أمثالنا العامة عند الأمم نثراً ونظماً .
- ٥٠ - ذيل شعراء النصرانية : تنمة لما نشره الأب لويس شيخو اليسوعي عن شعراء النصرانية ولم يكمله لوفاته ، فذيله المعلوف تذييلاً مفيداً .
- ٥١ - مجموعة في الشعر المفقود والمشتت : كتاب ضمنه ما عثر عليه في المخطوطات والمطبوعات المشتتة من نظم الشعراء العصريين كاليازجيين وأحمد البربر ومعلم الشميل وسليم الجدي وبطرس كرامه وإلياس صالح كنعان وغيرهم .
- ٥٢ - نيلُ المتمنى ، في فنون المعنى : مجلد كبير دوّن فيه تواريخ فنون الزجل وأمثالها قديماً وحديثاً .
- ٥٣ - تاريخ الأمير بشير الكبير .
- ٥٤ - مجموعة دواوين بعض الشعراء : مثل (ديوان ابن حجة الحموي) الذي جمعه العلامة المعلوف و(ديوان الإمام الشافعي) .

(ج) آثاره المترجمة :

ولتقف على المنزلة الرفيعة التي بلغها المعلوف بين أساطين العلم ورواد الثقافة أسجل أعقاب هذا التمهيد أسماء آثاره القلمية المنقولة إلى اللغات الحية بأقلام نفر من كبار الكتاب الشرقيين والمستشرقين ممن زاروه في زحلة أو راسلوه .

وبعض هؤلاء ذكر ما نقله من مخطوطات المعلوف بأمانة وتجرد ،

عازياً الفضل للعالم العامل . وبعضهم نسبها إليه جاحداً فصل صاحبها الأول !

كان المعلوف ، يرحمه الله . يلبي طلب من يزوره أو يرأسله في أى موضوع من مواضيع العلم أو أى شأن من شئون التاريخ والأنساب .
مغالياً بالحديث الشريف :

« من كتم علماً أَلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار ! »
حتى فى أخريات أيامه ما كان يرضن بجواب على أى سائل رغم انحراف صحته والتسويش البادى على خزائن كتبه !
ومن النوادر الجديرة بالتدوين . والمناسبة مؤاتية . أن أحد أصحابه راره فى مكتبته بزحاة وسأله نقل بعض فصول من مؤلفاته فأباح له المعلوف ذلك شريطة ذكر المصدر الذى استقى منه . فوعده بذلك ومضى فى نسخ ما استطابه من مقالات المعلوف !

ونشر الصديق مقالاته بعناوين بارزة لكنه لم يذكر المعلوف والمرجع الذى عوّل عليه ، وبعد أن فرغ من نشر تلك المقالات وعزاها لنفسه جاء لزيارة الشيخ عيسى فهبّ للقائه ويده مقص يقصّ به أوراقاً ، وهو مفتوح الشفرتين ، فقال الصديق : « أما تعلمت يا أستاذ كلمه "لا" من هذا المقصّ المفتوح ؟ »

فأجابه المعلوف مرتجلاً :

وقالوا كالمقصّ نرى فلاناً يجاوبنا بلا فهو الشحيحُ

فأسرفت التبعّن في مقصّر
رأيت الحلقتين بشعرتيه
فقلت لم أخالفكم بهذا
وفنى النفى إثبات صريح !
فلا، لا كان منطق الفصيح
كما ما رسمه الحد الصحيح

اسم المترجم	اللغة المترجم لها	اسم المترجم
أمين الريحاني	الإنكليزية	١ - مزايا الشعر الأندلسي
»	»	٢ - آثار المعري
الدكتور فيليب حتى	»	٣ - تاريخ الصيد
موسى المعلوف	»	٤ - الأسر الشرقية السامية
الشيخ خليل حبّيش	الفرنسية	٥ - حوادث تاريخية عن إبراهيم (باشا) المصري
ليسرف الفرنسي	»	٦ - الزجل وفنونه
أدب مجهول	التركية	٧ - تاريخ سورية ولبنان وجغرافيتهما
المستشرق كراتشكوفسكى الروسي ، وبندى الجوزى	الروسية	٨ - وصف مخطوطات حلب
الدكتور نجيب ساعاتي	اليونانية	٩ - مقالات في التاريخ والأنساب والآداب

اسم الكتاب	اللغة المترجم لها	اسم المترجم
١٠ - مطابع حبيب والمطابع العربية في رومانيا	الرومانية	إميل مرقده
١١ - مباحث في شئون الشرق وآدابه وفنونه	الألمانية	المستشرق كسمباير الألماني
١٢ - آداب العرب وآثارهم	الفارسية	أديب مجهول

المعلوف محاضراً :

تميز شيخ مؤرخي العرب المعاصرين بارتجال خطبته متى أراد باغة سهلة فصيحة ، ولا يفارق المنبر إلا وقد ترك في النفوس أثراً ظاهراً ندفاعه عن قضية تاريخية يراها عادلة !

وشأنه على المنبر شأن رجال العلم والفكر حينما يُقبلون على مخاطبة العقول النيرة ، ودونك أبرز المواضيع التي حاضر فيها المعلوف :

المراسلة بالحمام الزاجل ، الطب عند القدماء . حل ثلاثة رموز أثرية في متحف دمشق : (ميترا ، نانيت . أسكولاب) . خصائص اللغة العربية لا سيما النحت وأجراس الكلام Harmonie . فلسفة التاريخ أو النقد التاريخي ، الألعاب الأولمبية ، التراسل بالبريد والنار . الرياضة البدنية عند العرب والإفرونج ، الزلازل في سورية . الشعر

الأندلسي . سكان سورية بشهادة آثارها . العلاقات التاريخية بين مصر
والشام . أبو الطيب المتنبي وشرّاح ديوانه . مدرسة الإسكندرية ونوابغها
وكتاب (جر الأثقال) لهيرون اليوناني أحد أبنائها وقد نقله إلى العربية
فسطا بن لوقا العاملي برسم بديعة في خزانة المملوك . العرب وطب
الأسنان . التداوى عند العرب للوقاية من الأمراض . الأعضاء الصناعية
الطب العربي . طب العيون . مباحث مختلفة في الطب عند العرب ،
الكتب الطبية المؤلفة في فحص النض والبول عند العرب . الوصايا
الصحية عند العرب . الحمى طيباً ولغوياً ، قصيدة في أصرار المشتد
(الكورسيه) . جودة الهواء والماء في لبنان . الصحف الطبية العربية ،
من الأشعار الطبية العربية . قصيدة في وصف الربو (البهر) ،
الحمّات أو الينابيع الحارة ، تواريخ الطب والأطباء باللغة العربية ،
الأراجيز الطبية لابن سينا . وصف مخطوطين قديمين في مصر وسورية ،
التعريف في الجراحة للزهراوى الأندلسي ورسوم الآلات الجراحية ، العرب
والجراحة . القانون (لابن سينا) وأراجيزه الطبية ، الموشحات الأندلسية ،
الأوائل (وهو بحث طريف عن أول من عمل شيئاً عند قدماء اليونان
والرومان والفرس والعرب ثم عند من جاء بعدهم من الأمم إلى عصرنا
الحاضر) . البريد عند العرب ، العرب في الأندلس . إيوان كسرى ، إلخ ..

عدا عشرات المقالات التي نشرت في « مجلة المجمع العلمي العربي »
و« الهلال » . و« المقتطف » ، و« الضياء » . و« الحكمة » . البيروتية ،

و « المجلة الطبية » . الدمشقية . و « المذهب » . الزحلية ، و « الإصلاح »
الأرجنتينية ، و « النعمة » الدمشقية ، و « الضاد » ، و « الكلمة » ،
و « الحديث » الحلبية . و « مجلة قف إلیاس » البقاعية .

وأغلب تلك المحاضرات القيمة لم يطبع حتى اليوم سوى محاضرة مفيدة
ألقاها في المؤتمر الطبي المنعقد مساء السادس من أيار عام ١٩٢٥ في
الجامعة الأميركية ببيروت بعنوان « الأسر العربية المشتهرة بالطب العربي
وأشهر المخطوطات الطبية العربية » معززة برسوم الآلات الجراحية التي عرفها
العرب من قبل .

وطبعت هذه المحاضرة على نفقة المرحوم الدكتور سامي حداد أحد
نوابج الجراحة في لبنان .

رحم الله المطران بولس سلمان أول رئيس لأساقفة الأردن القائل :
« لو هيء لك أن تستمع لأحاديث العلامة المعلوف في شئون التاريخ وشرح
فضاياه ، لحدّثك ثلاثين عاماً متواصلاً ، لا ينقطع ولا يتلثم ولا يكلّ
ولا يملّ ، ولا يبطل ولا يزلّ ! » .

المعلوف شاعراً :

خلف المعلوف ثروه شعرية ضخمة وديوان شعر ما زال مخطوطاً
ويحتوى على ثلاثة عشر ألف بيت تبهر في الأدب والتاريخ والأخلاق
وبعض المعربات عن اللغات الأجنبية والشعر المعاصر .

ومن حسنات منظومه أنه سخّر التعابير الشعرية للمصطلحات العلمية ،
وصدّر ديوان شعره (بنات الأفكار) بمقدمه مبتكرة في تأثير الأشعار وقد
فصلنا ذلك في باب (آثاره المخطوطة) .

مختارات من شعره :

ترك الفقيد العلامة المعاوف طائفة من الدواوين الشعرية منها « سفر
الأحزان » وفيه وصف مصائبه الدامية التي واجهها بدمعه العصي ،
وأبرزها فجيعته الكبرى بنجله المرحوم « فوزى »^(١) شاعر الخلود ، وفي
ذلك يقول من قصيدة مطولة :

ذروا الثاكل المحزون مضمئى بخطبه
ولا تزعجوه فهو لاهٍ بكربيه
يقول الذى يخى الليالى بئديه :
« لكل امرئ ضيف يسرّ بقربيه
ومالى سوى الأحزان والهم من ضيف !
وقفنا لـ « فوزى » كل ما كان عندنا
من الأمل البانى ببعاه مجبنا

(١) اقرأ قصة هذا الهزار المنحرف في كتابنا (ساعر الطيارة فوزى معلوف) من
مشورات (دار المعارف) بالقاهرة

وقد نقض الدهر المروّع عهدنا
يقول خليل : « كيف صبرك بعدنا ؟ »
فقلت : « ونل صبراً ! فيُسأل عن كيف ؟ ! »
وسجل المعلوم بعدسنه مشهداً من مشاهد الحرب العالمية الأولى ومن
ذلك قوله :

حملت من الأيام ما ليس ينتل
ومن نكد الإخوان ما ليس يحمل
تباين أخلاقٍ ، وخلفٌ هبّادي
بهذين نفسُ الحرِّ والله تُقتل
طباعٌ بها خبثٌ وشرٌّ وفتنةٌ
يقابلها منى دوماً تجمّل
صبرت على هذى الطباع لأننى
تجاهلت حتى قيل إني أجهل !
أصاحبٌ إخواناً فأستر عيبتهم
وهم يفضحونى بئس ما قد تمحلوا
يلومونى جهلاً ولى الفوز واضح
ويشكونى وهماً فألحى وأعدل

وأرعى وداداً ليس يرعون بعضه
وأحمل جوراً في ولاهم وأعدل
وأبغى وفاء ليس يبغون بعضه
وأحمل جوراً في ولاهم وأعدل
وأرضى نحال ليس يرضون بعضها
وكم في ولاهم كل يوم أنقل!
إذا جئتُ معروفًا فذاك مساءة
ولكنهم مما أساءوا تنصلوا
عليهم حقوق ليس يوفون بعضها
وكم د تقاضوني حقوقاً وأعضلوا
عناداً بلا فهم ووعد بلا وفا
وجهل بلا حلم وما ذاك يجمل
إذا عاش حر الفكر بين جماعة
يسومونه الإذلال... فالموت أفضل!

وجلا المعلوف بشعره العذب صورة ناطقة حيّة لبعبك الخالدة
بأطلالها ، المتشاحّة بأعمدتها :

إذا أوحش السياح في الغرب مربع
ففي الطلل الشرقى أنس ومنجع

وإن ساغ فخر بالقديم فإنما
يسوغ لنا الفخر الذى لا يضيع !
ففى الشرق للأصنام شَمَّ معابد
ولا سيما للشمس قد طابَ مطلعُ !
لقد أبنتِ الأيام آثارَ ترقينا
وليس لها ندُّ على الأرض يرفعُ

فكم شيد فيه هبكل جاء جاماً
وكم سجد العبادُ فيه وإنما
ففى بعلمك الصرحُ وطدَ شاخاً
إذا قيل فاق اليومُ ما كان قبله
لكم حار فى هذى الرسوم مهندس
من استنطق الآثار أغناه صامتُ
فيا أيها الإنسان هل أنت خالدُ
وفى صرحنا الأحجار ذات ضخامة
فشقَّ على فتك الزلازل هدمها
وفى حجر (الحبلِ) تقوم بنقله
وكم آلةٍ للرفع فيه منيعةُ
لأتقن وضع مثله ليس يوضعُ !
بهامته صدرُ الزوائب ينزعُ
وليس لمن يبغى احتذاه تدرعُ
فقل كذب الراوون إذ ليس مُقنع
وليس على ما مشلوه تصنعُ
يقول: ابتنوا مثلى فى المنعُ
لتبنى بناءً لم يروعه مصرعُ !
بأعمدة تحنى عليهن أضلعُ !
لذا انقطعت عنها فلم تك ترجعُ !
فكيف الذى قامت به وهى تُرضعُ !
فليس يجارها لدى النقل ميرفعُ !

وكم قام فيها منجنيت صوابها يقصر عن مرماه في الحرب مدفع
 في أصلب الأحجار قد جلّ نقشهم
 إذا كان في أوراقنا الرسم يطبع
 و (تخريتها) يسي العقول لأنه
 يمثل أشكالا لها الدوق مبدع
 كأد الصخور الشمّ شمع مذوّب
 تطرّزها في أبدع النقش إصبع

• • •

ومن ثم ترقى (هيكل المشتري) الذى
 بأبدع أنواع النقوش مقنّع
 بوابة فى سمكها (النسر) حامل
 (مفاتيحها) يحمى حماها ويمنع
 و «لولبه» فى طى صخر كأننى
 و «هيكل أصنام» رفيع عماده
 وفيه اتساع لا يحاكيه موضع
 (محاريبه) الحسناء ضمن جداره
 وكم قر بها فى ذلك البهو مخدع
 (أساطينه) ستّ تناجى سماءها
 على رأسها أسد لها الجو مربع
 وفى خارج النيان (هيكل زهرة)
 وتلك إله الحسن فيها التورّع !

وقد نحتوا وسط الصخور مغاوراً
(مراقبها) قامت كعبة دورس
وكم في مبانيها نقوش فسيفسا
عجائب هذا الكون سبع عظيمة
ولكن رأينا « بعلبك » مليكة
فكانت مزاراً والشعوب تقاطروا
وكم قدمت فيها القرايين أنفساً
لموتاهم منها النواظر تهجزع
غرائب ما في مثلها الدهر يطمع
لها رونق زاه وحسن ممتع
تضارعها « النزهات » إذهن أربع
عابهن في عرش العلى ترتبع
إليها من الدنيا وفيها تخشعوا ... !
وفاض لدى تلك المناظر مدمع !

* * *

كأنى بها تروى أحاديث من مضوا
لقد أفرغوا جهاداً برفع منارها
لهم همة لم يطحن الصخر روفها
فبالمال والآلات والوقت سلحوها
فسقياً لقوم قد أقاموا بناءها
تصانيف تاريخ ستقرا سطورها
(مدينة شمس) ثبت الله ركنها
وناظرها في دهشة يتسمع
فلم يبق في قوس التفن منزع
وصحة آراء وقلب مشيع
وبالكد والصبر الجميل تدرعوا
على أسس الإتقان ليست تززع
إلى يوم حشر أعين ليس تهجع
وأطلالها الغراء ما الشمس تطلع !

ويؤم صرع الردى شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى (باشا)^(١)

(١) أديب جادة من كبار الكتاب ، ولد بالإسكندرية ونخرج بمدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة وأثنى الفرنسية وكان يفهم الإنكليزية والإيطالية وله بعض المعرفة باللاتينية ، عين مترجماً لمجلس النظار ، فسكرتيراً نائباً ، فسكرتيراً أول ، ومنح لقب (باشا) واتصل بعلماة المشرق ، ومثل مصر في مؤتمراتهم ، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية ، وأحكم =

(١٨٦٧ - ١٩٣٤) أبرق المألوف إلى (بيت العروبة) معزياً :

في النيل ركس تداعى فيا لؤل المصبية
لو قيل : من مات أرّخ ! لقلت : « شيخ العروبة ! »

ومن منظومه القصيدة التالية وفيها صورّ مناظرة جرّت بين (المِرْقَب

(TELESCOPE) و (المِسْجُور - MICROSCOPE)

مدح المرقب لنفسه

أفنيّت عمري في دُجى الأحلاك حتى اكتشفت غوامضَ الأفلاك
وتخذت في قمم الجبال صوامعاً قد عشتُ فيها عيشة النساك
وبمرصدى أحييت ليلي قائلاً للعين : « لا تتمتعي بكراك ! »
قوى عيوني « هرشل » في سعيه قصدَ اجتلاء مجرّة وشمّاك
فكشفت من تلك الغوامض سرّها وجريت في الزرقاء جرى مذاكي
لو كنت في زمن الرشيد أربتكم آيات سحرٍ فائق الإدراك !
يا قبة قد رُصّعت بنجومها أنت الفناة يشوقني مرآك !

= صلته برجال العرب في جميع أقطارهم ونسبى بـ «شيخ العروبة» وسبى داره «بيت العروبة»
وجمع مكنه في نحو عسره آلاف كتاب ووقفها ، فنقلت بعد وفاته إلى « دار الكتب
المصريه » . سأل الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب قاموس « الأعلام » عن أصله ، فقال .
إلى عربى من بيت النحار من عكا (فلسطين) وكتب المرحوم الأبر شكيب أرسلان في وصفه
« كان بقطعة في إغفاءة السرف ، وهبة في غفلة العالم الإسلامى ، وحياة في وسط ذلك المحيط
الهامد » .

فالطرفُ لم يفتن بغيرك منظرًا
فبشُّهيك الغراء طاب تغزلي
أنت اكتسيتِ من الزُّمرد حلةً
وشددتِ خصركِ في نطاقِ مجرةٍ
لله درُّ كسائك المسوج إذ
نسجته كف النور في منوالٍ لي
لما رأيتِ مودتي لك أخذاصتِ
والقلبُ لم يطربُ بغير بهاك
ولسان حالي مُفصحاً حيّاك
وتختمتِ بالنيرين يداك
ونظمتِ من دُرر النجوم حلاك
قد طرّزته أصابعُ الحياك
ل . والهللُ يلوحُ كالحواك
طول المدى : أسررتِ لي نجواك

جواب المجهر

كم تدعى بالوهم فضلاً كاذباً
كبّرتُ كل صغير جسمٍ للملا
وكشفتُ مكروهاً بعاجله الطيب
لو كان « بقراط » درى بمنافعي
ولكنت قد أغنيتكم عن شرح تذي
فلكم أعدتُ خرافةً نسجتُ عنا
فأريتهم أثرَ الخلائق حيةً
وخذعت أعينهم ببعض مناظر
فالناسُ من جرّاءها في شبهة
بأرضنا الخضراء، مضمهر السنا
وأنا لشخص العلم خير ملاك !
من عالم الحيوان والأسماء
ب . فكم شفى من دائه الفتاك
ما كان في الدنيا عليلٌ شاك !
كرة الحكيم « بصيرنا الأنطاكي »
كنا عليها لحمةً كشباك
في غير أرض . ناصبَ الأشرار
في الثابتات وكل ذات حراك
أدّت لنشر تخاصم وعراك
سرحتُ عيني في بديع ربّاك

إن الطبيعة قد حبتك محاسناً والشمس قد رشفت كؤوس ندادك
فلأنت في أزهارك الغراء قد فقت السماء . وربنا يرعاك
وشواعر الإنسان تدرك حسنك الز اهـ . وتُظنّب في مديح سنالك

مغزى المناظرة

فالناسُ بين مفضل وموفق كم شاكر منهم وآخر شاك !
والحق أن لكل شيء موقعاً كتعاقب الأنوار والأحلاك
فاجن المنافع وانبد الأضرار إن حماية الأزهار بالأشواك
فكمجهير لا تحقرن صغائر وكمقرب كنّ واسع الإدراك !
ومن روائع منظومه قصيدة في وصف (صنين) منها :

قد زرت في صيف ربي (صنين) ووددت لو أني أقمت سنينا
جبلٌ يناجي بالسمو إله ويسعد صوت نسيمه التلحين
يا حبذا النبع المبرد سفحه فكأنه الألباس سال مصونا
سفع تدفق ماؤه مترقفاً بين الحصى أكرم بذاك معينا
أكرم بهاتيك المناظر إنها حنت لها كل القلوب حينها
من كان يشتم الغلو فقل له : حبّ المواطن قد دعوه ديناً

وحسب الففيد فخراً أنه أنجب ثلاثة نوابغ للدولة الشعر العربي هم :
« فوري » شاعر الخلود ، وقد ضمخ أدب (الضاد) المعاصر بنفثات
شعره . وعلى الخصوص (على بساط الريح) تلك الملحمة المذهبة التي

جمعت بين رقة الأندلس وفلسفة الهند وحكمة اليونان وروح العرب
وفيها يقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين : « لقد خسر الشعر
العربي الحديث بموت هذا الشاعر الذي لم يتجاوز الثلاثين ، ولكنه ربح
بهذه الحياة القصيرة ربحاً ما أحسبه بالقليل ، إذ زوّد دولة الشعر بمحتمته
النفسية (على بساط الريح) » !

وثاني نوايغ المعلوف « شفيق » صاحب ماحمة « عبقر » ودواوين
« الأحلام » و « لكل زهرة عبير » و « نداء المجاذيف » و « عينك مهرجان »
و « سنابل راعوث » وهو بلا جدال أحد أساتذة التجديد والإبداع في
مدرسة الشعر العربي المعاصر !

وثالث نوايغ المعلوف « رياض » شاعر الحب والجمال وصاحب
دواوين « الأوتار المتقطعة » و « خيالات » و « زورق الغياب » و « تلاوين »
و « غيوم » و « حبات رمال » و « الفراشات البيضاء » و « مسامير العاج »
و « شعراء الحمرة والمرأة عند العرب » و « غيوم » ...^(١)

ولأني أؤكد لك ، يا ثاني الثلاثة — رحم الله فوزي وشدد جناحي
رياض — أن سروري وفخري بصداقتي لكم ، المنبثقة من صداقتي
للعلامة المفضل والدكم . لا يؤثّران بما أقول في شعركم ، فقد أغضبتك
مرة ، على ما أظن ، في فجر نبوغك !

(١) من رسالة بحث بها فيلسوف الفريكة المرحوم أمين الريحاني للأستاذ شفيق معلوف
إنر صدور ملحة (عبقر) في طبعها الأولى عام ١٩٣٦ .

أما وقد ذكرت الوالد فيجب عليّ أن أقول ، فبل أن أحصر الكلام فيك ، إنه فريد زمانه ، بل فريد أزمنة التاريخ قديماً وحديثاً . فهل يا ترى جاء في تواريخ المتقدمين والمتأخرين ذكر والد كان له من أبنائه ثلاثة شعراء ؟!

لأظنك تجد بطيراً . عالماً أو أمياً ، لصديقي العزيز والدك ولو فتنت عه في تواريخ العالم كلها ، فهنيئاً له . ثم هنيئاً له !

ولكن لهذه النعمة الفريدة ناحية أخرى جدية بالنظر . ليت شعري ماذا كنت أقول . وبماذا كنت أشعر . لو كنت أنا أباً لثلاثة شعراء ، وكل منهم يروم مشاركتي في الكرسي الذي لي والموعود به في دار الخلود! وقد لا يكون من قسمتي ، في سفر الشهرة والمجد . غير سطر واحد يحمل للعالم خبري كله . وهو أني والد الشعراء الثلاثة ! »

من أدب مجاسه :

انحرفت يوماً صحة العلامة المعلوف فعاده الكثيرون من أصدقائه ورأوا الكتب ركاماً حوله فقال أحدهم : « لم كل هذه المجلدات ؟ ألم تقرأ يا رعاك الله ، ما أوصى به أحد الشعراء أولاده إذ قال :

اجعلوا ^(١) إن مت يوماً كفنني ورق الكرم وقبري المعصرة
وادفنوني وادفنوا الراح معي وضعوا الأقداح حول المقبره
فأجابه المعلوف :

أما أنا فسأوصي أولادي بما يلي :

اجعلوا إن مت يوماً كفنني ورق الكتب وقبري المكتبه

(١) صور الشاعر المرحوم داود عمين (١٨٧٢-١٩٢٢) أمثته بعد وفاته بقوله : =

وإدفنوني وإدفنوا الكتب معي وانثروا الأوراق حول المرتبة^٥
فضحك عواده ثم استأنف محدّثه بقوله :

وكيف تعارض يا أستاذ أبا محجن الثقفي الذي أوصى ولده قبل موته
بقوله :

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمه بروي عظامي الباليات عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
فأجابه المعلوف :

أما أنا فأقول لولدي :

إذا متُّ فادفني إلى جنب مكثي فتحي عظامي الباليات طروسه
ولا تدفني بالعراء فإنني سيأكلني وحش العراء وسوسه

لقد صدق والله هذا العالم الصابر في وصيته هذه ، وبارح هذا العالم
الفاني وهو يردّد باعتزاز وفخر أبرز أمانيه :

ولكل طالب لذة متنزّه^٦ وألذّ نزهة عالم في كتبه !

= يا بني أمي إذا حصرت ساعتي والطب أسلمي
فاجعوا في الأرز مقبرتي وخذوا من نلجده كفي
وصور شاعر آخر أمينته عند ما تدنو منيبه بقوله .

إذا حانت وفاتي فادفنوني بكرم واجعلوا زقاً وسادي
وإبرناً إلى جنبي وطاساً بروي هامتي ويكون زادي !

الفصل الرابع

الخزانة المعلوفية

في طريقك إلى بهو فسيح تجثم فيه « الخزانة المعلوفية » بزحلة يقع
ناظرك على لوحة نحاسية نقش عليها بحروف بارزة :
« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ،
ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ،
ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ! »

وكتب على « الخزانة المعلوفية » نظماً :

كل شيء تقنيه كله عندما تعطيه بعض المم
إنما العلم إذا أعطينه الكل يعطى البعض فابذل تغم
ولعّ الفقيد ، مند نعمة أظفاره ، يجمع نواذر الكتب المخطوطة
والمطبوعة ، وأنفق ثروة طائلة في سبيل اقتنائها ولا سيما المخطوطات إذ أحرز
عشرات المخطوطات النادرة . وطاف بالمدن والأديار في سورية ولبنان
ومصر تحقيقاً لهذه الرغبة . وتسنى له أن يجمع طائفة منها بخطوط مؤلفيها
أو تلامذتهم . ومنها ما قرئ على المؤلف فأقره ، مضافاً إليها طائفة نادرة
من المطبوعات كان الفقيد المعلوف يحسبها شبيهة بالمخطوطات والكتب
المصورة والمزركشة .

ووضع « الخزانة المعلوفية » قائمة تشتمل على مخطوطاتها وفي كل مخطوط بحث عن مؤلفه أو واضعه ونسخه ومميزاته .

ومن أبرز خصائص « الخزانة المعلوفية » أن العلامة المعلوف جمع الكراريس والمؤلفات . التي هي من موضوع واحد ، بالمئات وحزمها مجموعة واحدة حرصاً عليها من الضياع . وبحث عن الكتب التي هي بمخطوط مؤلفها أو تلامذتهم أو منقولة عن خطوطهم ، واقتناها ولا سيما في التاريخ .

وفي عداد محفوظاته (تاريخ العرقاني) و (تاريخ سلك الدرر) و (تاريخ القدس الجليل) و (تاريخ الأندلس) وغيرها .

وكذلك كتب الفنون الرياضية والفلكية والميكانيكية والموسيقية ، مصورة ومزخرفة ومجدولة ، وبينها كتب أنساب قديمة بمشجرات بديعة ضمها إلى مخطوطاته فكانت آية في الإبداع والزخرفة والإتقان برسومها وتذهيبها وتلوينها وتجليدها .

وضمت « الخزانة المعلوفية » كثيراً من المجلدات المطبوعة على الحجر ، وهي من قبيل المخطوطات ، وفيها رسوم وتراويق وجداول في العلوم الطبيعية والرياضية والفنية ، ومنها كتاب « حياة الحيوان » للدميري وعلى هوامشه رسوم أشخاص وحيوانات وحشرات جاءت في غاية الدقة والإتقان .

وبذل المعلوف جهداً بجمع كتب بالعربية والسريانية والعبرية والتركية والفارسية والقبطية والحشية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والرومانية

والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والألمانية والهيروغليفيه والهندية ، والصينية ، وهي بفنون مختلفة .

وكثير من المجاميع والمؤلفات دونت بقلم الفقيه . وجلدت بيده حفاظاً عليها من الضياع ، وهناك مخطوطات ومطبوعات مصورة بالشمس ، وأوراق ومنشورات وعرائض وأشباهها مجلدة وملصقة بمخطوط أربابها وبعضها بمخطوط غيرهم ، ونوادير المطبوعات القديمة في الشرق والغرب اقتناها وبعضها طبع حديثاً لمعارضة ذلك بما طبع قديماً .

وهناك إفادات عامة وتعليقات وأنباء عن تواريننا وأخبارنا ، ومجموعات أصول العيال « الأسر » بمخطوط أصحابها في عدة مجلدات نقلت كلها أو أهمها إلى موسوعة « الأخبار المدونة والمروية ، في أنساب الأسر الشرقية » في أربعة عشر مجلداً .

وكان من عادة المعلق أن لا يعبر الكتب البتة خارج خزائن كتبه . إلا في ظروف قاهرة ، فشطرت بيتين من الشعر بهذا المعنى ووضع هذا الشعر على إحدى خزائن الكتب :

« ألا يا مستعير الكتب دعني »

فلي بالكتب يا صاح افتخار

إذا سلواي كانت في كتابي

« فإن إعشاري للكتب عار »

« فمحبوبى من الدنيا كتابى »
ومجداى الكتب لا مجدى اتجار
فهل شاهدت مجداً يبع بخساً
« وهل أبصرت محبوباً يعار ؟ ! »

وفى مكان آخر - من خزانته - الأبيات التالية وهى من نظمه :
رأيت الكتب كنزاً ليس يفنى فكن فى حفظها سامى المكانه
صحاب لا يمل المرء منها وليس بها لمبدئه خيانه ... !
نسامره وتوسعه انتفاعاً وكم قد عاضدته بالإعانه !
ولولا أنها درٌ ثمينٌ لما زخرت وربك بالخزانة !
فتلك قلوب أهل العلم تلقى لأيدى الناس تحفظها أمانه !!
وفى «الخزانة المملوئية» مجموعة لرسائل كبار الذين راسلوه بخطوطهم .
وفهرست لوصف المخطوطات وتعرف فيها بأرقام .

وحرص الشيخ عيسى على جمع الكتب النادرة مثل كتب النصيرية
والإسماعيلية والزيدية والدروز والماسون ؛ فاجتمع لديه منها نواذر قديمة
مخطوطها ورموزها .

وعندما همّ بالسفر إلى سان باولو (البرازيل) لالتحاق بأنجاله فيها
ابتاعت الجامعة الأميركية فى بيروت نسخاً (مكررة) من مخطوطات
لدبه ، على هوامشها تعليقات وحواش بخط الفقيه .

وفي خريف عام ١٩٢٦ طُبعت في بيروت رسالة عنوانها « مخطوطات
الخزانة المعلوفة في الجامعة الأميركية » وفيها وصف مختصر لمجموعة
كتاب من نفائس المخطوطات العربية ، بينها بعض الكتب الفارسية
والتركية والسريانية واليونانية ، ودونك وصف لتلك المخطوطات :

مخطوطات « الخزانة المملووية »

فف الجامعة الأمركفة (١)

أنعم الرئفس ضووج لحنة من أسائفة الجامعة إلى زحلة أنمفص
مخطوطات الأستاذ عفسف إسكندر المملوف رغبة فف ابتفاعها وبناءً على
عزم الأستاذ المملوف أن بهجر الوطن ، فقصدت اللجنة زحلة وبعء أن
تفقءت « الخزانة المملووية » ورأت ففها من ذخائر المخطوطات ما ففجب
حفظه فف البلاد قررت ابتفاعها وحفظها فف مكتبة الجامعة باسم صافبها
ذكرًا لأتباعه ومكافأة للجهاءء الأءبف وهف فمسمائة مخطوط بفن مملء كبفر
ومتوسط ورسالة ، عءا أوراقًا أخرى وملفات ، وإلفك أهم تلك المخطوطات
مقسمة ففب مواضعها (٢) :

القسم الءفنفف والجلءل :

٥٦ كءابًا — منه كءب فف الصلوات عئء المسلمفن والنصارف وفف
تءفءفء الءمامع وتفسفر القءاس والزفءاء والرهبنات والتأملات والمزامفر
والتسابفء والاعتراف والعقاءء والجلءل والصلوات والأذكاء والتعلفم الءفنفف

(١) فعلا عئ مجلة (الكلفة) الءء الساءس .

(٢) بف فف خزانة المملوف أكءر من ألف مخطوط كءفر منها ناءر الوءوء .

وآداب الإكليروس واردة على أبواب المذاهب وأهم ما فيه (محادثة العالم والحكيم) للقديس باسيليوس تعريب البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الأرثوذكسي سنة ١٧٠٥ م في ثلاثة أجزاء يظهر أنها بخط القس جبرائيل ابن فرحات الحلبي وهو المطران جرمانوس و (قطعة في المجمع وأقوال أبي قره) أسقف حرّان بخط قديم و (الرد على الدر المنظوم) للبطريرك بولس مسعد الماروني و (صحيفة المحو لصفحة ابن النحو) للخوري يواكيم المطران البعلبكي رداً على ابن شقيقة إلياس فخر ولعله من بني نوفل الطرابلسيين لأنهم يسمون بني النحو و (مجموع مقالات دينية) في العقائد المسيحية والانبثاق ومقالات لبولس أسقف صيدا ولعبد المسيح خادم كرسي المطرنة بهيوفركيا نصيبين وهو مجلد بخشب بخط قديم و (أربعون رسالة) بمذهب الدروز وفيها السجل المعلق وميثاق ولي الزمان و (كتاب في مذهب الإسماعيلية) بخط الأمير بن الأمير سليم من أمراء القدموس سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ م) و (كتاب السيد عبد الله التنوخي) في العقائد الدرزية ، و (آداب الإكليروس) تعريب المطران جرمانوس آدم الحلبي و (تحرير التوراة والإنجيل) و (الرد على النصاري واليهود) و (تأسيس الرهبنة والأديار) و (سور القرآن ورموزها) و (أحاديث مرتبة على حروف الهجاء) إلى غير ذلك .

القسم التاريخي :

وفيه واحد وثلاثون كتاباً بينها (تاريخ حمص) و (تاريخ أساقفة بيروت الأرثوذكسين) و (الأمير فخر الدين المعني) و (تاريخ الأمير عبد القادر الجزائري) للكولونيل شرشل الإنكليزي و (الكواكب السائرة) للنجم الغزي و (تاريخ آل النابلسي) لكمال الدين الغزي و (طبقات الشافعية) لابن قاضي شهاب و (تاريخ ائمة الزيدية) و (الطراز المنقوش في محاسن الحبوش) وغير ذلك .

القسم الرياضي :

٣١ - وفيه كثير من كتب الحساب والجبر والهندسة والمساحة و (الموجز في المساحة) و (شرح السخاوية) و (شرح خلاصة العامل) و (مختصر المرشد) و (النزهة) و (علم الغبار) و (شرح اللمع) برسوم متقنة .

القسم الفلكي :

٣٦ - من المؤلفات الفلكية (شرح الجغميني) و (حوادث الجو) و (استخراج الأرباع) و (الحسوف والكسوف) و (التقويم) و (العمل بالربع الحبيب) و (المقنطرات) و (دائرة المعدل) و (رسم الساعات)

و (شرح الزيج) و (الأسطrolاب) و (التوقيت بالساعة ذات العقربين)
و (صور الثوابت) للصوفي عدا كتب التنجيم والزايجة والأوفاق وفيها
صور نفيسة .

القسم الطبي :

٤٥ - وفيه كتب في (طب الخيل) و (غنية اليب عند غنية
الطبيب) و (الروضة الطبية) لعبيد الله بن بختيشوع و (زاد المسافر)
لابن الجزار و (المختصر الفارسي) و (تذكرة الكحالين) و (رسالة
الحميات) مصورة ورسائل في (الأبوال والأنباض والأكحال) و (الفتح
في التداوى) و (أقراباذينات) و (شرح الموجز للكاظمي) و (النجيبات)
للسمرقندي و (عمدة الإصلاح) لابن القف النصراني في الجراحة
و (شرح الموجز) للأمشاطي مصور .

القسم الكيماوى :

٧ - وفيه (ديوان شذور الذهب) لأبي الحسن على بن الأنصارى
مرتب على حروف الهجاء و (متن المكتب في الصناعة الإلهية) للشيخ
الرازى و (مختصر الشواهد في الحجر الواحد) لأبي القاسم العراقي و (الدرة
السنية في تدبير الصناعة الإلهية) لعلي جاي الروى وهو آخر الكتب
الإكسيرية في الكيمياء القديمة .

قسم الفقه والفرائض :

٢٢ - ومنه (فتاوى قاضى خان) و (فتاوى ابن نجيم المصرى)
و (الفقه الحنفى) و (شرح الهداية) و (فرائض السخاوى) و شرحها للماردينى
و (عمل المناسخات بالجدول) لابن الطائم و (فرائض مجدولة) بديعة
الترتيب والرسوم .

قسم المنطق :

١٦ - منه (الإيضاحات المنطقية) للخورى يواكيم المطران و (شرح
الصبان على الماوية) و (العطار على السجاعي) و (منطق القديس يوحنا
الدمشقي) .

قسم الفلسفة والقانون :

٧ - منه (فاسفة ابن سينا) نسخة نفيسة و (رسائل الغزالي) قديمة
و (أحكام الملوك) و (الحقوق الكنسية) .

القسم الطبيعى :

٥ - منه (نخب الذخائر فى أحوال الجواهر) و (الأحجار)
لتيماشى و (زيد الطبيعيات) و (رسالة القبان) للعطار .

قسم النحو والصرف :

٢٥ - منه (مجموعة في علم الصرف) و (شرح الأعمودج)
و (الدماميني على المغني) و (نظم حروف المعاني) و (ما يحتاج إليه
المعرب) و (شرح نبذة الإعراب) و (المعرف باللام وما قيل فيه)
و (الكفاية) .

قسم المعاني والبيان والبديع والعروض :

١٣ - منه (الروضة اللبانية) في شرح بديعية الخوري أرسانيوس
الفاخوري و (مختصر البيان للتفتازاني) نسخ سنة ٨٠٤ هـ و (شرح منظومة
ابن الشحنة) و (عروس الأنصاري) و (مجموع بديعيات) و (الإيضاح
على الإيضاح) و (البارع في العروض) و (مختصر المصباح) للجرجاني
و (مجاميع مختلفة) فيها .

القسم الأدبي والوعظي :

٢٩ - منه (زجر النفس) و (حِكْم السمرقندي) و (حِكْم ابن عربي)
و (مواظ القديس يوحنا الذهبي الفم) و (كشف المعنى) لبديع الزمان
الهمداني و (المعونة على دفع الهم) و (المنتخب من ربيع الأبرار)
و « عظات يوحنا الذهبي الفم » و (روضة الفصاحة) للرازي و (منتخب

الكشكول) للطريحي و (مجموعة أمثال ومجادلات وحكم) و (الصبح المنبي عن حيشة المتنبى) و (أدب الكاتب) لابن قتيبة .

قسم التراجم والمشيخات :

١٦ - منه (ترجمة البخارى) و (مناقب الشيخ أرسلان) و (سير قديسين) و (ثبت أبى المواهب) و (مُسلسلات ابن عقيلة) و (ترجمة ابن المزلق) حاكم دمشق .

قسم الرحلات والمناسك :

٦ - (مناسك السنجارى) مصور و (قطعة من رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى) بخطه ونخط علماء عصره و (رحلة الكيلانى) من حماه إلى مكة المشرفة و (رحلة مقحط والنمير) إلى أوربة وهما كاهنان كاتوليكيان سافرا لجمع الإحسان لبناء كنيسة سيدة النجاة فى رحلة .

قسم التفاسير والشروح :

١٥ - منه (شروح قصيدة المنفرجة) و (شرح الأربعين حديثاً) و (شرح ديباجة المثنوى) و (شرح الاستعارات) و (شرح أبى الهدى القشبرى) و (شرح المرشدى على عقود الجمان) فى المعانى والبيان و (شرح جيمية ابن الفارض) لعله لابن كمال باشا و (شرح مسائل ابن بطلان) و (شرح عقائد) إلى كثير من الشروح المختلفة المواضيع .

قسم الدواوين الشعرية وشروحها :

٦٢ - (ديوان ابن الفارض) و (ابن النبيه) و (ابن سنان الحفاجي) و (عبد الغنى النابلسي) و (الخوري جرجس عيسى الزحلي) بخطه و (الخوري نقولا الصائغ) و (المتنبى) و (ابن خلوف) و (أناشيد الشيخ أمين الجندى الحمصي) و (ديوان الجسال محمد) و (الشيخ حسن الغزى) و (سقط الزند) للمعري و (الحافظ الشيرازي) بالفارسية و (ابن معتوق) و (الأرجاني) و (مجاميع) لشعراء مختلفين و (سفائن) و (مقاطيع) و (ديوان الترك) و (ديوان إبراهيم الحكيم الحلبي) عدا كثيراً من الشروح مثل (شرح البوريني) على الفارض و (شرح ديوان الصائغ) .

قسم المقامات والمراسلات :

١٤ - منه (مقامات الحريري) نسخة نفيسة مزركشة موشاة مضبوطة منسوخة عن نسخ مصححة قرئت على الإمام الحريري و (سفينة نهالي) في الأدب والفنون و (تلخيص سفينة أبي زيد البعلبكي) و (مجموع مراسلات قديمة) لكبار الكتاب المشهورين كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب .

قسم اللغة :

١١ - منه (مجموعة) فيها (ما آت القرآن) و (ما نسب إليه من القرآن) و (فلك القاموس) و (فقه اللغة) للثعالبي نسخة مضبوطة و (الحيل) للأصمعي و (التعريفات) للجرجاني و (الصحيح) قديم من عهد المؤلف مضبوط (والمضاف والمنسوب) للثعالبي و (المثلث) لقطرب و (الفصيح) لثعلب، نسخة قديمة مضبوطة .

قسم الجغرافيا :

١ - منه (عجائب البادان) عدا ما في الرسائل من المجاميع .

قسم الخط :

٢ - منه (رسالة في الخط وآدابه) و (المقنع في رسم القرآن) قديم نفيس عدا ما في الرسائل من المجاميع .

قسم الأنساب :

٣ - منه (شجرة أنساب) و (مشجر مهم ملون بالأصباغ) إلى آخر الملوك العثمانيين منذ خمسين سنة و (نسب قضيب البان) الحلبي .

١٠٢

قسم الفراسة :

٢ - منه (الفراسة) لأرسطو ألفها للملك إسكندر المكدوني
و (دلائل الفراسة) .

قسم الإجازات والعهود :

٧ - منه (إجازات تدريسية) في علوم اللغة والفصاحة والفقه والطب
والتاريخ و (ما يقال عند العهد والشد) و (طريقة العهد والشد) و (صلح
وقف بدمشق) و (ثبت إجازات) .

قسم الموسيقى :

٣ - منه (دوائر الأنغام) بالفارسية و (مجموعة في الموسيقى الكنسية)
و (الموسيقى الكنسية) باليونانية مربوطة بالعلامات وهو قديم مهم .

قسم نصائح الملوك والسياسة :

٤ - منه في مجموعة (مقالة في سياسة القواد) و (سراج الملوك)
نفيس و (النصيحة العامة للملك الإسلام والعامة) و (نصيحة الملوك والأمراء
والوزراء) للغزالي من مقتنيات أحد الأمراء البحريين وعلى هامشها حوادث
تاريخية .

قسم الأخلاق والآداب :

٣ - منه (آداب الضيافة) و « قطعة في آداب السلوك والأخلاق »
و (أخلاق وعادات الحلبيين) إلى كثير من أشباه هذه النوادر التي فيها
مزايا مهمة ليست موجودة في بعض ما طبع منها .

نظرة عامة في هذه المخطوطات :

إن كثيراً من المخطوطات المذكورة له مزايا خاصة (فنصيحة الملوك)
للإمام الغزالي عليها اسم مقتنيها الأمير محمد بن علي الحاج حجي أحد
أمرأء التنوخيين البحريين في بيروت (سنة ٩٧٦ هـ - ١٥٦٨ م) وعلى
هوامشها حوادث مهمة ذات قيمة تاريخية و (مجموع ثمانى عشرة رسالة)
في الفلك والرياضيات و (مجموع تسع رسائل) فيها نوادر المجاميع المفيدة
و (صور الكواكب) لأبي الحسين الصوفي فيه رسوم بديعة وكذلك
(الجغمى على قاضى زادة) الفلك متقن الرسوم والأشكال جميل الخط
والحواشى و (التلويع في شرح التوضيح) و (المقامات الحريرية) بديعة
التوشية والنقوش والتذهيب و (رسالة الحميات) فيها جدول لمعرفة أنواعها
وصور الدم بألوانه في بعضها فضلاً عما فيها من الفوائد اللغوية بالتسميات
والأوضاع و (المنجز على الموجز) للأمشاطى فيه رسوم أهمها مشجر في
القوى الحيوانية بديع الرسم والتلوين .

ومن قديم المنسوخات (رسائل الغزالي) كتبت سنة (٥٤١ هـ - ١١٤٥ م) و (المثلث لقطرب والفصيح لثعلب) نسخ سنة (٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م) و (الصحاح) سنة (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) و (منهاج الدكان) سنة (٧٣٩ هـ - ١٣٣٨ م) و (المقنع) سنة (٧٤٣ هـ - ١٣٤٢ م) و (مختصر التفتازاني) سنة (٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م) و (فرائض السخاوي) سنة (٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م) .

وهكذا منسوخات القرون التي بعد التاسع إلى يومنا ، ومن بديع ذلك الجزء السادس من (صحيح البخاري) نسخة نفيسة مذهبة كتبت في القرن السابع للهجرة و (كتاب في الفلك والفلسفة) بالسرمانية مسودة المؤلف . ومن نفائس تلك المخطوطات ما نسخ بخط مؤلفيها مثل حاشية الصبان على الملوية في المنطق بخط الصبان ، وقطعة من رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي بخطه ، وقطعة من ذخائر العصر في التراجم بخط مؤلفيها ابن طولون الصالحى ، وشرح الفقه الأكبر للنسفي السمرقندى بخطه ، وحاشية حسن العطار على مقولات السجاعي بخطه ، وحواشي لب الأبواب بخط واضعها السيد محمد أمين عابدين الفقيه الشهير ، ورحلة الخورى فيلبس النخبر إلى أوربة في أواسط القرن الماضى بخطه ، وديوان الخورى جرجس عيسى من زحله بخطه ، ومفكرة طنوس الشدياق المؤرخ بخطه ، وحوادث سنة ١٨٤٠ فصاعداً بخط واضعها الخورى أرسانيوس الفاخورى على الأرجح .

ومنها ما نُسخ عن خط المؤلف مثل (الدر النضيد) في التعليم للشيخ بدر الدين الغزى الدمشقي ، و « شرح منظومة ابن الشحنة الحلبي » لابن عبد الحق الطرابلسي ، ومنها ما هي مذيلة ومدرجة بجواش وتعليق ذات شأن مثل الحكم للسمرقندي ، والبيان للتفتازاني ، وشرح الفارض للبوريني ، ونصيحة الملوك للغزالي ، وأدبيات الفلاسفة ، وروض الأختيار . ومنها ما يصحح خطأ المترجمين فإن المحي في (خلاصة الأثر) (٢ : ٣٦٩) ذكر أن المرشدي المكي توفي سنة ١٠٣٧ هـ وفي حاشيته على (عقد الجمان) للسيوطي ، وهي نسخة نفيسة ، يقول إنه أتمها سنة ١٠٤١ هـ فليحرر .

ومنها ما عليه اسم بعض العلماء المشهورين وهو كثير منه مواعظ يوحنا الذهبي الفم عليها اسم (مخايل بن داود بريك) وهو مؤلف (تاريخ بطاركة أنطاكية) .

ومن ذلك إجازات وأوراق مهمة منها (مجموعة في أعمال قنصلية الإنكليز في إزمير) بخط ترجمانها ناصيف المملوك^(١) في حوادث جرت بأصالية بالتركية والإنكليزية والفرنسية ، إلى كثير من أمثال هذه النوادر ، فضلاً عن المجاميع المحتوية على رسائل مختلفة مهمة .

(١) راجع ترجمته في كتاب « دواني القنطوف في تاريخ بني المملوك » بقلم صاحب هذه المخطوطات المرحوم عيسى إسكندر المملوك وفي مجلة (المشرق) اليسوعية بالمجلد الثامن ، وقد ألف (ناصيف) هذا سبعة وعشرين كتاباً وأتقن سبع لغات وألف فيها .

ومن المؤلفات النادرة الوجود التي لم نقف على نسخ منها في ما علمنا
(ديوان إبراهيم الحكيم الحلبي) و (كشف المعنى) للبديع الهمداني
صاحب المقامات و (روضة الفصاحة) للرازي و (مناسك) لحسن
السنجاري و (مآآت القرآن) للجعبري و (العالم والحكيم) لباسيليوس الكبير
و (منتخب الكشكول) للطريحي .

هذه لمعة بارق بل لمحة نظر في هذه المخطوطات المتضمنة كثيراً من
المواضيع التي لم يدخل بعضها في ما قسمناه هنا ، بل لم يدخل الكثير
من الرسائل التي ضممتها المجاميع المختلفة فيها أيضاً .

يوم في خزانة

عيسى إسكندر المعلوف

هذا عالم آخر من علماء لبنان خرج التلاميذ ودرّب الطلبة إلى جانب التأليف^(١) والتصنيف زهاء خمسين عاماً في همة تجاهل القعود وبدراية واسعة وهو أبو شفيق المعلوف صاحب ملحمة (عبر) وأبو المرحوم فوزي صاحب ملحمة «على بساط الرياح» هذا القصيد الفريد الباقي على الزمن ! زرقته في زحلة في طريقه إلى دمشق أول الخريف الماضي ، ولبت بداره يوماً أتصفّح مخطوطات فيها النادر والنفيس ، بعضها من قلمه والآخر من أقلام من تقدم .

على أن للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف تواليف مطبوعة ، لا أتّهل عندها ولا أذكر منها إلا كتاباً هو «دواني»^(٢) القطوف في تاريخ بني المعلوف ، وقدر هذا الكتاب في عرضه لتاريخ حوران وذكر أسرها ولاسيا الغساسنة ، وفي إشاراته إلى تاريخ لبنان وفلسطين مع تدوين طائفة كبيرة من الحوادث والوقائع بمنح الشئون العمرانية والفوائد الجغرافية ثم العادات والأخلاق .

وأما المخطوطات فغير قليلة ، وإليك التي نشطت لموضوعاتها :

(١) مقتطف يونيو ١٩٤٢ : الدكتور بشر فارس .

(٢) طبع في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ .

(أ) في اللغة (الفصيحة والعامية) :

١ - «فهرس شرح الأمثال العامية العربية» وهو يشمل أربعة عشر ألف مثل تجرى على ألسنة الناس في لبنان وسورية وفلسطين وما يجاورها ، وميزة الكتاب أن المؤلف يردف المثل العامي بما قيل في معناه في الفصحى ، نحو ذلك هذا المثل العامي : « البرطيل بيحلّ شاش القاضي » ثم يلي المثل قول الشاعر :

فبرطّل إن أردتَ الحالَ يمشى فلا يمشى سوى خفّ المبرطل

ثم قول المرحوم سليمان البستاني ناقل (الإلياذة) وقد نظم معنى للفرس :
بعشر خيارات لقاضيك رشوة تثبت في البطيخ عشر مزارع
٢ - « معجم الألفاظ العامية والدخيلة » في سورية ولبنان وفلسطين مع رد اللفظ إلى أصله العربي أو الأعجمي من جهة الاشتقاق أو التعريب ، وإيراد ما وضع العرب أو المؤلف نفسه للفظ إن كان أعجمياً ، ولهذا المعجم مقدمة في اللغة العامية وآدابها وفنونها .

(ب) في الأدب :

١ - « شحذ القريحة في مقتطفات البليغة الفصيحة » في مجلدين ، الأول في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، والثاني في المعاني الشعرية من السماء حتى الأرض مع ذكر العلوم والاختراعات .

وفى المجلد الأول مباحث فى الشعر عند الأمم العربية والغربية ، ومن
الفصول : طبقات الشعراء عند العرب وتحليل أشعارهم ، شعراء الأعاجم
شرقاً وغرباً ، الشاعر وآدابه ، الحس والخيال والمعانى ، الموازنة بين الشعر
العربى فى المشرق وفى المغرب ، فى فن قرض الشعر ، اكتساب ملكة النظم ،
شياطين الشعر ، اختلاف خيالات الشعراء ، كل ذلك مستخرج من
أقوال العرب وآرائهم وأشعارهم ، ثم التقليد والتجديد ، الروية والارتجال ،
الدكاء والعبقرية والنبوغ ، ثم الفنون الشعرية : التشطير والتخميس
والتسديس إلى التعشير ، المتوشح وكيف يكتب برسوم على أشكال غصون
مع أمثلة مختلفة ، التاريخ الشعرى ، إلى آخر ما هنالك من الإجازات
والألغاز وغرائب القوافى والأشعار والأوزان ثم الترجمة^(١) ، وأما المجلد الثانى
فيتضمن المعانى الشعرية مرتبة على تحدرها من السماء حتى الأرض ، وفيه
طوائف وغرائب من الوصف .

٢ - « تكملة ديوان الإمام الشافعى » الذى طبع منه مختارات فى
القاهرة (سنة ١٣٢١ هـ) وقد رجع المعلوم إلى مخطوطات نادرة فى مقدمتها
« مناقب الإمام الشافعى » للعسقلانى .

٣ - « مجموع الدواوين المفقودة » : هى دواوين بحث عنها الأستاذ

(١) ومن ملح هذا الباب الأخير ما نظمه الشيخ إبراهيم الخوراني (المتوفى فى بربوت
سنة ١٩١٦) مترجماً معنى للشاعر الروسى بوشكين :

قال الذهب الدنيا ملكى	قال الفولاذ أنا الصاحب
قال العقيان أنا الشارى	قال الفولاذ أنا الناهب

الجماعة في مخطوطات كثيرة متفرقة في الخزانات المختلفة ، فجمع منها قصائد ومقطوعات لشعراء مجهولين أو مهملين كأمثال :

السيد أحمد البربر الدمياطي البيروني وهو من أدباء مفتتح القرن التاسع عشر ، فقد عثر له المصنف على أكثر من ألفي بيت ، ومن قوله في الشيب :

خيوط الشيب قد مدت بفودي ومدت خيوطها قصر الحياة
أجادت غزلها أيدي الليالي لتنسجه غداً كفناً لذاتي

وملحهم الشميل اللبناني ، وشقيقه أمين الشميل ، والسيد عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت ، والشيخ راجي اليازجي شقيق الشيخ ناصيف ، ومحمود بك ابن خليل بك العظم الدمشقي ، والسيد علوان الغر قاضي بيروت ، والسيد أحمد الغر مفتي بيروت ، والقس حنانيا المنير الزوقي ، والحاج حسين بيهم البيروني ، وكل هؤلاء من أدباء القرن التاسع عشر .
٤ - « ذيل شعراء النصرانية » وفيه أتمّ المعلوف ما كان نشره الأب شيخو .

٥ - « تبديد الأوجال في فن الأوجال » وهو مجموعة من الأوجال القديمة والحديثة في سورية ولبنان ومصر والعراق وسائر البلدان العربية .

وقد استخرج المعلوف مواد هذه المجموعة من عدة مخطوطات محفوظة في خزائنه ، وإنني أعلم أن المستشرق ليسرف Lecerf وصفها ورجع إليها

في بحثه المستفيض في الأدب العامي العربي ، ومن مطاوى هذا البحث يتبين لك أن الأستاذ المعلوف من الأثبات في فنّ الزجل وأدبه وتاريخه .

(ج) التاريخ :

١ - « معاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر » في مجلد كبير يبلغ ألف صفحة ، ترجم فيه المؤلف لعدد وافر من الأدباء الذين أحملهم غيره أو زاد على ما جاء عند غيره ، والمترجمون بين عرب وإفرنج ، وهؤلاء ممن أقام ببلاد العربية أو ساح فيها مثل الكولونيل تشرشل بك الذي توفي في ناحية سوق الغرب (بلبنان) وهو عم المستر تشرشل رئيس وزراء إنكلتر في سنوات الحرب العالمية الماضية ، ومثل رتشارد وُد R. Wood الذي قصد إلى لبنان سنة ١٨٣١ ليخرج منه إبراهيم باشا^(١) .

٢ - تاريخ آل اليازجي « في مجلدين ، وقد دفعه المؤلف إلى مطبعة دير المخلص بقرب صيدا .

٣ - « الأخبار المدونة والمروية في أنساب الأسر الشرقية » وهو سفر شامل « لتواريخ الأسر في لبنان وسورية وفلسطين والعراق والعجم وآسية الصغرى ومصر وبلاد العرب والمغرب وما إليها وفي المهاجر ، وهذه

(١) هذين الإنكليزيين خاصة نوادر في البلاد ، ثم إن لأول ثلاثة كتباً مفيدة منها :

Ten Years Residence in Lebanon - ١

The Druzes and the Maronites - ٢

الأسر من جميع المذاهب المسيحية والإسلامية واليهودية على اختلاف طوائفها ومناشئها ومواطنها وأنسابها وأسمائها أصولاً وفروعاً ، ثم ذكر حوادثها وتراجم سلاثلها إلخ » وقد بلغ هذا السفر حتى ٢٤ أغسطس ١٩٤١ أربعة عشر مجلداً كبيراً .

وأما مصادر الكتاب فبين المنقولة سماعاً والمتعقبة في بطون المخطوطات والمطبوعات مثل كتب الأنساب وما يأخذ أخذها من المشجرات والعناقيد ، ومثل الحجج والسجلات أو صحائف الخراج والخرج والكنائش^(١) والتذاكر والسفائن ، فهو استخراج للمخبرات .

تلك هي المخطوطات التي من قلم الأستاذ المملوك ، ولعلّ أجملها شأنًا يخرج عاجلاً ، ثم إن في خزانة هذا العالم الدائب في العمل مخطوطات أحب أن أشير إلى بعض ما له شأن :

١ - « مجموعة رسائل » تاريخ نسخها سنة ٦٤٤ هـ لكبار الكتاب مثل ابن بصاقة وابن الأثير صاحب « المثل السائر » في مراسلة الملوك ، وبعض هذه الرسائل في الحروب الصليبية .

٢ - مجموعة من كتب الدروز « وهي نحو ١٥ كتاباً فيها أسرار هذه الطائفة وأنشيداتها ، وأخبار عن أعيانها ، وشئون في معاملتها لسائر الطوائف ، وفي هذه المجموعة مقالات أدبية للسيد عبد الله التنوخي الدرزي .

٣ - « تاريخ نابوليون الأول » لنقولا الترك اللبناني (١٧٦٣ - ١٨٢٨) وفائدة هذا التاريخ أنه يشتمل على كثير من المنشورات والرسائل الخاصة بحملة نابوليون على مصر .

٤ - « تاريخ مصر ^(١) » لخليل الخورى الشاعر (١٨٣٦ - ١٨٧٥) صاحب جريدة « حديقة الأخبار » البيروتية ، ألفه بإشارة من سعيد باشا .
٥ - « جامع الفنون وسلوة المحزون » تأليف نجم الدين أحمد بن حمدان بن شبيب الحراني الحنبلي المتوفى سنة ٦٩٥ هـ فيه مباحث مختلفة فهو أشبه بدائرة معارف فى الجغرافية وما إليها خاصة .

٦ - « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ، ومعلوم أن هذا الكتاب طبع فى أربعة مجلدات (١٢٩١ و ١٣٠١ هـ) إلا أن ميزة نسخة المعلوم أنها بخط أبى الخير خطيب الدمشقى تلميذ المرادى ، وأن المرادى نفسه وقف عليها وضبطها ، ففيها فوائد وتصويبات لا غنى عنها لمراجعة أو هام وردت فى النسخة المطبوعة .

٧ - « ديوان » لعبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ هـ فى « المراسلات » وهو غير « ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » المطبوع ، وفى هذه « المراسلات » فوائد كثيرة عن دمشق وغيرها من المدن الإسلامية

(١) صنّف هذا الكتاب بطلب من الحديوى إسماعيل وأجيز عليه بمبلغ ألفى جنيه مصرى .

- مع ذكر أسماء العلماء والصناع وعرض شئونهم .
- ثم إن هنالك مخطوطات يحسن التنويه بها لما يزينها من التزاويق :
- ١ - « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » للمشهدى ،
فيه تصاوير لطيفة للآلات والعازفين ، بينها صورة جارية هارون الرشيد
والكمان في يدها .
- ٢ - « كتب في الفلك » لقاضى زاده الروى من القرن التاسع الهجرى .
- ٣ - « كتاب جر الأثقال » لهيرون الفيلسوف اليونانى (الإسكندرى)
نقله قسطا بن لوقا البعلبكى والمخطوط من القرن السادس عشر الميلادى .
- ٤ - « رسالة في الشطرنج والقتال وصف العساكر بطريقة المناصب
الشطرنجية » لأحمد بن خجلة التلمسانى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .
- ٥ - « حياة الحيوان » للدميرى المصرى ، وهو مطبوع ، لا مخطوط ،
طبع في فارس سنة ١٢٨٥ ، مع صور جميع الحيوانات المذكورة في
الكتاب (طبعة نادرة) .

* * *

هذا بعض ما انتهى إلى في ذلك اليوم الذى قضيته متصفحاً ، فاحصاً ،
من حولى طرائف وضئائن ، بين يدى شيخ جليل حبس حياته على طلب
العلم ونفع الناس به ، ومن قبل قال الحسن البصرى : « الدنيا كلها ظلمة
إلا مجالس العلماء ! » .

* * *

ما هبط زحلة أديب أو مستشرق وعرج على العلامة المعلوف زائراً
إلا كان من أبرز أمانيه الطواف بـ « الخزائن المعلوفية » والوقوف على
ما احتوته من نفائس المخطوطات ، والعكوف على استنساخ ما يهيمه
الوقوف على مضامينه .

ومن المخطوطات القيمة التي قلبها في « الخزائن المعلوفية » « مجموعة في
الطب والصناعة الموسيقارية » لأبي الفرج عبد الله بن الطيّب ، وهي
مجموعة بخطوط مختلفة ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير ، وفي عام ١٩٢٥
ابتاع نسخة (إضافية) من هذه المجموعة الثمينة الدكتور محمد أجمل خان ،
العالم الهندي ، عندما زار المعلوف بزحلة مصحوباً بشيخ العروبة المرحوم
أحمد زكي (باشا) كما ابتاع نسخة من كتاب « المغنى في الطب »
وأخرى من « رسالة أرسطو إلى الإسكندر في الكيمياء » .

وفي « الخزائن المعلوفية » وقفت على مخطوطات نادرة منها :

١ - مخطوط في الطب لطبيب أردني هو الجراح النابغ أمين الدين
والدولة أبي الفرج يعقوب بن إسحق القف المسيحي الكركي^(١) (نسبة
إلى كرك الشوبك) الذي خدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق واشتهر
بالجراحة الحربية وغيرها ، ونقد كتب الطب التي قبله نقداً موفقاً
ونزيهاً ، وتوفي سنة (٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م) .

(١) اقرأ ترجمته مفصلة في كتابنا « القافلة المنسية » المطبوع في عام ١٩٤٠
بالقدس الشريف .

٢ - « الفتح التداوى ، لجميع الأمراض والشكاوى » لأبى سعيد إبراهيم المغربى ، وقد ابتاعت نسخة (إضافية) شركة إنكليزية للترجمة والنشر مقيمة فى السودان ، بواسطة الدكتور نقولا المعلوف وكلفته حملته هدية إلى « مكتبة المتحف البريطانى » بلندن مع نسخة (إضافية) من كتاب « تذكرة السويدى » وعليهما تعليقات وحواش هامة بخط العلامة المعلوف .

٣ - « الرسالة القرطبية » بقلم الرئيس موسى بن عبد الله الطيب القرطبى ، وقد صنفها للملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وابتاعت نسخة (إضافية) منها مغرب زحلى الأصل ، مقيم فى الولايات المتحدة .

لقد صدق الشاعر الملهم أحمد الصافى النجفى يوم همس فى أذنى ونحن خارجان من زيارة العلامة عيسى إسكندر المعلوف :

« لو عُرِضت على المعلوف (إمبراطورية الرشيد) على أن يهجر
خزائنه العامرة أو ينفذ يديه من اقتناء الكتب والسعى وراء كل مخطوط
قيّم لنأى عن ذلك وأعرض ! » .

الفصل الخامس المعلوف مؤرخاً

كان الرحالة الجبار عيسى إسكندر المعلوف ثقة من ثقات التاريخ وحجة من حججه ، ناهيك بالتاريخ الشرقى ، وعلى الخصوص تاريخ الأسر الشرقية الذى مرّ بك ذكره ، فهو فى هذا المضمار النسابة المجامى فى كافة البلاد العربية .

ومن يقف على مصنفات هذا الباحث المحقق ويطالع ما كتبه المؤرخون قبله وبعده لا يسعه إلا الاعتراف بفضلته على « خزنة » التاريخ العربى والإقرار بأنه عانى من المشاق فى سبيل تحقيق تلك الأخبار ما لم يعانته مؤرخ من قبل ، وحسبه موسوعة « الأخبار المدونة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية » وقد جاءت فى أربعة عشر مجلداً ، لم تزل مخطوطة ، لأن إخراجها يحتاج إلى نفقات باهظة يعجز عنها الأفراد ما لم تتقدم الدولة للإنفاق على هذا المشروع الضخم وإخراجه إلى عالم النور .

تشتمل هذه الموسوعة الكبرى — على مقدمة فى علم الأنساب وفائدته وما يتعلق به ، ثم تتلو تواريخ الأسر الشرقية فى لبنان وسورية وفلسطين والعراق وإيران وآسية الصغرى والجمهورية العربية المتحدة والجزيرة العربية والمغرب العربى وسائر المهاجر .

ولترى أى جهود بذله المعلوم فى هذا السبيل ، وأى عزم وتصميم كان الفقيد يتحلى بهما فى حياته ، وأية مشاق بلاها فى سبيل تحقيق هذا المشروع الجهم الفائدة ، الجزيل النفع ، أطالعك تالياً بالنبذة التى مهد بها لذلك الغرض الجليل :

مصادر الكتاب وكيفية تأليفه :

تناولت أبناء الأسر من أفواه الرواة الثقات والشيوخ المعمرين معارضاً أقوال الكثيرين من الأسرة الواحدة بعضها ببعض على اختلاف مصادرها وتباين مواطنها لجلاء الحقائق وتصحيح الروايات ، ثم عدت إلى ما كتب عن تلك الأسر فى المطبوعات أو المخطوطات من كتب الأنساب الكثيرة ولا سيما (بحر الأنساب) وأشباهه أو التعليقات أو المشجرات أو العناقيد أو الأوراق الأخر كالوثائق (الحجج) وسجلات المواليد والوفيات وأوراق المقاسمات وتوزيع الضرائب وتقسيم الخرج (مال العنق) والخراج (مال الأرض) والكنائش (المفكرات) والتذاكر والسفائن والرسائل وحواشى الكتب ونحو ذلك من المظان المختلفة التى تعدّ بالمئات والألوف وفى مكتبتي كثير منها تفصّيت البحث عنها وطفّت لأجلها أكثر أنحاء الأقطار السورية واستنسختها ، واستطلعت طلع البعدين عنى من أفلام الباحثين المحققين بإعلانات على صفحات الجرائد والمجلات ومنشير خاصة وكتابات متوالية أكثر من ثلث قرن مما حرك الهمم وحضّ أرباب الأسر على

البحث والتنقيب ، وأرباب الصحف على وصف الكتاب وإطرائه قبل أن يظهر لما قرأوا من أمثله المختلفة وما عرفوه عنه من زياراتهم لى ، ومطالعة ما نقلته عنه فى بعض الصحف ، مجلات وجرائد ، فضلاً عما أفاد من تنبيه الأفكار إلى وضع تواريخ ومشجرات لكثير من الأسر ولا سيما بعد ظهور كتابى « دوائى القطوف » .

وبهذه المباحث عثرت على فوائد كثيرة كانت مطوية فى زوايا خزائن الكتب ومخادع المنازل وحبايا الصناديق مهمة لا يكثر لها ومبعثرة لا يعبا بها ، فأنجلى لى من الوقوف عليها حقائق كثيرة لم أكن لأحلم بوجودها فساعدتنى على مواصلة البحث ومتابعة الطلب وتكرير النداء للاستزادة من ذلك والتوسع فى البحث مما يضيق دونه الذرع ، ولن أزال فاتحاً أبواب القبول إلى أن أستوفى الأبحاث وأستتم تواريخ الأسر إن لم يكن كلها فعظمها ، وما يتأخر منها سأضمه إلى الأجزاء الباقية الممثلة بالطبع .

ولم أقتصر على كل هذا بل اعتمدت على درس علوم وظائف الأعضاء (الفسيولوجية) والطبائع البشرية (الإثنولوجية) والسلائل الإنسانية (الأنثروبولوجية) وأشباهاها فوفقت (بين) ما روى وكتب و (بين) ما هنالك من الملامح والتقاطيع والألوان والأخلاق والعادات ، فكان لى من وراء هذه المباحث فوائد كثيرة فى تحقيق هذا (التاريخ) ولأرباب الأسر تنبيه للبحث الذى أهملوه قبلاً ، فوضع كثير منهم تواريخ ومشجرات لأسرهم فكانت الفائدة منه مزدوجة وتنبت الأفكار إلى علم النسب الذى أهمل

أمره ، ولا سيما بعد الوقوع في مشاكل كثيرة بتقسيم الفرائض ومعرفة درجات أنساب الميت مما لا مرجع له إلا مثل هذا التاريخ وتلك المشجرات .

ترتيبه وفهارسه :

وضعت لهذا التاريخ مقدمة مطولة في علم الأنساب وأنواعه والنسابين ومؤلفاتهم وأسباب المهاجرات واندغام الأسر ورحلاتها ثم انتقلت إلى أخبار الأسر وكنت أودّ أن أرتب أسماءها على حروف المعجم كما فعل السمعاني في (أنسابه) والقلقشندي في (نهاية الأرب) وغيرهما من النسابة إلا أنني عدلت عن هذه الفكرة لعدم اقتناعي بما وصلت إليه يد البحث من التواريخ المتفرقة على كثرتها أمامي وقد أنهيت تسعة مجلدات ضخمة وبدأت بالعاشر منها وفيها ألوف من أصول الأسر وألوف، الألوف من فروعها ، لكني لا أزال كثير الطمع بالحصول على كثير مما فاتني فإذا عدّ بعض أرباب الأسر إهمال تواريخهم تقصيراً مني ووجهوا سهام اللوم إلى لعدم انتظاري أو للملئ من الطلب فتلك السهام تعود على من لم يلبّ ندائى المتواصل والمتردة أصداؤه في كل صقع .

ولهذا رتبْتُ الكتاب مقدماً ما أنجز من تلك التواريخ التي رأيت أنني ظفرت منها بما يكفي ، ومؤخراً ما لا تزال أبواب البحث فيه محتاجة إلى التحيص ، فأكون بهذا قد قضيتُ واجب البحث ولم أقصر في الاستقراء كما قصر أرباب تلك الأسر بتلبية ندائى .

وتسهيلاً للمراجعات وضعت فهارس مختلفة على حروف المعجم منها ما هو لأسماء الأسر بحسب أصولها وفروعها وبوطنها وأفخاذها ، ومنها ما هو لأسماء البلدان والمدن والقرى التي سكنها أسلافهم وأعقابهم من بعدهم حتى المهاجر في الأقطار الغربية الأوروبية والأميركية والأسترالية وبقيّة الجزر والبلدان في الشرق والغرب ، ومنها ما هو الأسماء المشهورين من العلماء والأدباء والأعيان حتى عصرنا هذا فيعرف المطالع شئون أسرته ومواطنها ومشاهيرها وفروعها .

فائدة هذا التاريخ في العصر الحاضر :

من أفضل ما تتزين به صفحات التاريخ أخبار المواطنين على اختلاف مراتبهم وأماكنهم وأصولهم وفروعهم وأعمالهم لأن تاريخ الوطن هو تاريخ سكانه ، وليس سكانه هم الذين نبغوا بالعلوم والفنون والثراء وبسطة السلطان فقط ، بل هنالك جمّة كثير من الذين اشتهروا بالأخلاق الطيبة والأعمال الحظيرة والصناعات النفيسة والبسالة والإدارة وطيب الأحداث ، ممن يجب أن يخلد التاريخ ذكرهم ، فلهذا كانت دعوتي لجميع أبناء الأسر ليتحفظوا بتواريخ أسرهم مفصلة أو مختصرة دعوة عامة لكل فريق منهم غير مقتصرة على طبقات معلومة ، وفتحت أبواباً رحبة في كتابي لكل بحث يأتيني منهم على اختلاف طبقاتهم ومواطنهم ، وأصولهم ومذاهبهم ، ليكون تاريخي معجماً للأسر .

ولما كان للتاريخ دوران في كل زمان ومكان وأمة : دور رواية ودور تدوين ، مرّ تاريخ أسرنا الشرقية بدورين أيضاً (أولهما) دور رواية بقي أحقاباً طويلة متناقلا على الألسن ومختزناً في مخادع الحافظة ومروياً من السلف إلى الخلف حتى أواسط القرن الماضي ، ولقد وُجد في تلك الأحقاب من دوّنوا الروايات تثبيتاً في حفظها وتخليداً لأبنائها فأجادوا في ما تركوه لنا من كتب الأنساب المفيدة مخطوطة أو مطبوعة ولكنها أقلّ من القليل ، و (ثانيهما) دور تدوين رأيت وقت جمعه الضروري حين بدأت به .

على أن دور الرواية المتناغى به في المجالس والمسامرات قد انقطع بانتشار المدارس وانصراف الأذهان إلى مطالعة التواريخ الأجنبية واستضعاف الأخبار الوطنية واستهجان الروايات الأهلية وعدّها من سقط المتاع فضعف ذلك الفن وكان في تشتيت شمل الأسر في المهاجر ما ساعد على هذا الضعف فلم تستطع الأسرة الواحدة أو الأسر المتجاورة أن يجتمع أبناؤها وحفدتها بين أيدي الآباء والأجداد ليسمعوهم تلك الأساطير ويفكهوهم بهاتيك الأقاصيص جرياً على عاداتهم الموروثة ، فوجب أن يتدبّر دور التدوين بانتهاء دور الرواية فكتب بعضهم أنساب أسر لم تعدّ بعض الأشراف والأمراء والمقدمين والمشايخ والأعيان ممن خطروا في بالهم أو كان لهم في ذكر شأن وأهميت تواريخ بقية الطبقات .

فلهذا رأيت ، منذ أمُيطت عنى التأمّم ، أن أبأشر وضع تاريخ عام

فاتخذت الشيوخ من الرجال والنساء سُمّارى وصرت أدونّ عنهم ما يقصونه علىّ أو ما أسألهم عنه فكانت رغبتي تقوى بازدياد ذلك الضعف في الرواية وتتوفر لذتي بتوفر تلك المسطرات التي كنت أراجعها وأدهش لها مقتصرًا على أخبار الأسر أصولاً وفروعاً وحوادثها وسير مشاهيرها .

ثم رأيت أن كثيرين يموتون وهم من أرباب الثروة الواسعة فتكثر دعاوى ورثتهم البعيدين عنهم فيختصمون على إثبات النسب القريب لاستحقاق الميراث وليس لهم مرجع يعتمدون عليه في صحة دعاويهم غير التاريخ ، فأخذت في وضع مشجرات الأنساب لمن لا مشجرات لهم وكابدت عرق القرابة في ضبط كثير منها مساعدة لمثل هؤلاء .

ما تطلبه الأسر مني وما أطلبه منها :

قال ثيودوريس المؤرخ اليوناني الشهير : « إنني دوّنتُ تاريخي ليكون ذخيرة العصور لا ليكون مقالة يصفق لها استحساناً وقتياً ثم تلقى في زوايا الإهمال » .

ولقد أصاب هذا الفيلسوف في قوله ، وأراني أطالب نفسي بواجبات كثيرة أمام هذا العمل الخطير أهمها الإخلاص في خدمة الأسر التي أبحث عنها فلا يسوغ لي أن أبخس بعضها حقها الصريح المثبت بأدلة راهنة وبراهين دامغة وأنساب مدوّنة وتصديق صحيح ، ولا أن أعطي بعضها حقاً لم يقيم على صحته دليل ولا خطر في محيطة باحث ، فتجافيت عن مضاجع التزلف والتحامل ، واتخذت الإنصاف لي ديناً والإخلاص

دأباً ، فأعطيتُ كل ذى حق حقه بحسب ما وصلت إليه يد البحث وما أثبتته التمهيص والتدقيق ، فإن شططت بما رويتُ وظهر عند بعض أرباب الأسر ما يكذبني ويزيف أقوالى فأقرّ بخطئى منذ الآن ولكنى لا أبرئهم من معرّة الإهمال ووصمة الإعراض عن معاضدتى وإمدادى بما لديهم من الآثار الموثوق بها وعن كتم أخبارهم عنى إلى ما بعد نشر الكتاب ، وحسبى أن أذيل البيت المشهور بقولى :

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجودُ يدُ إلا بما تجدُ
والناس إن أنصفوني صوبوا عملى وغضّ طرفاً عن التقصير منتقدُ
فإن أزلّ فإن العذر يشفع لى وإن أُصب فعلى الراوين أعتمدُ

ثلاث حوادث طريفة :

تعدّ الوثائق الفريدة الموجودة فى ملفات العلامة المعلوف ثروة لا تعدّها ثروة ، ولكم لجأ إليها الباحثون من عرب ومستشرقين فوجدوا فيها ضالتهم المنشودة ، ويقتضينى الإنصاف للتاريخ أن أدوّن ثلاث حوادث طريفة كان محورها هذا العامل المؤمن :

١ - من أشهر مؤلفات المعلوف كتاب « دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » ، ولهذا الكتاب القيم فضل على المغتربين العرب فى (الترانسفال^(١)) إذ أن حكومة تلك البلاد قرّرت قبيل الحرب الأولى

(١) أحد أقاليم إفريقية الجنوبية ومن أسهر صادرائه : الذهب ، والماس ، والفحم الحجرى .

١٢٥

طرد الشطر العربي المعترب من تلك البلاد زحماً منها أن مغربينا في تلك الديار « حاميو الأصل » وأن العرب أمة غير مرغوب فيها ، فترجم المرحوم موسى معلوف ، نزيرل الترنسفال ، فصلاً من « مقدمة » كتاب « دواني القطوف » وفيه يثبت المؤلف أن سكان البلاد العربية « ساميو الأصل » .

وكان من تأييد هذا الفصل التاريخي المترجم إلى اللغة الإنكليزية أن ألغت وزارة الداخلية قرارها الأول وأصدرت قراراً آخر جاء فيه :
« إن المهاجرين العرب شعب مرغوب فيه ، وإن في وسعهم أن يدخلوا الترنسفال متى شاءوا أسوة بالشعوب الراقية كالألمان والفرنسيين والإنكليز والاطليان ! »

٢ - عندما نجح الأتراك بسلخ لواء الإسكندرونه العربي عن أمه سورية عام ١٩٣٩ بمعونة الفرنسيين وحلفائهم ، هبّت السلطات في سورية للتدليل على « عروبة » اللواء المخصوب ، فلم تجد مصدراً تعول عليه في هذه القضية الشائكة ، وتزود منه بالبيانات والشواهد سوى « الخزانة المعلوفة » .

وغيره من العلامة الجليل الأستاذ عيسى إسكندر المعافى على « عروبة » ذلك الجزء المحتل ، وهو الغساني الأرومة الطيب المحتد ، أعدّ مذكرة مسهبة مدعمة بالشواهد ، مؤكداً فيها « عروبة » ذلك الجزء العربي .

٣ - في صيف عام ١٩٣٥ زار العلامة المعلوف في منزله بـزحلة مهندس لبناني وسأله بلهفة المستجير أن يكشف له عن مسقط رأس أسرته الأول ، ويزوده بأخبارها ، لأن محاكم لبنان تنظر في قضية ميراث هامة ، ولئلا يحرم ذلك المهندس نصيبه من تلك التركة زوده العلامة المعلوف بأوراق ثبوتية تؤكد دعواه ، ومدّ الشاب اللبناني يده إلى جيبه وتناول خمسين ليرة ذهبية قدّمها للفقيد لقاء الجهود التي بذلها في سبيل نصفته ، لكن الشخصية النبيلة ردّت المبلغ إلى الشاب بلطف .

الفصل السادس

المعلوف في المجامع العلمية واللغوية

كان المعلوف عالماً من الأعلام الأنخيار في العالم العربي ولغوياً واسع الاطلاع ، تكاد تخرج من استعراض جهوده بـ « موسوعة كبرى » تخون الأيام قارئها بتعداد صفحاتها .

لم تقتصر خدمات المعلوف على ما دبّجت يراعتة من مقالات طريفة ، ومحاضرات مفيدة ، وفصول رائعة نشرتها أمهات صحف العالم العربي ، بل نشط لخدمة التأليف والنشر ، واختير عضواً عاملاً في مجامع علمية عربية وأجنبية ، ودونك تفصيل ذلك :

(أ) في مجلس المعارف بزحلة :

وفي مطلع عام ١٩١٨ عيّن عضواً في مجلس المعارف بزحلة مع لقيف من أهل المعرفة والوعى ، وانتخب المعلوف نائباً لرئيس هذا المجلس ، وظل يدير رئاسته إلى نهاية الحرب الأولى ودخول العرب والحلفاء سورية .

(ب) في مجلس المعارف بدمشق :

بعد أن بويج الأمير فيصل بن الحسين (الملك فيصل الأول فيما بعد) على عرش سورية ، قامت في دمشق « شعبة الترجمة والتأليف »

فاستدعى الأمير زيد بن الحسين (وكان نائباً عن شقيقه الملك فيصل) العلامة المعلوف بتشويق من تلميذه المرحوم عيسى^(١) العيسى ، سكرتير الملك فيصل عهد ذاك ، وعينه في أعقاب عام ١٩١٨ عضواً في « لجنة

(١) ولد المرحوم عيسى العيسى في يافا عام ١٨٧٨ ودرس في كلية الفرير بيافا فدرسة كفتين الأرثوذكسية (بلبنان الشّمال) وكان أستاذه فيها المرحوم عيسى إسكندر المعلوف ، وواصل دراسته في الجامعة الأميركية ببيروت ، وكان يجيد أربع لغات حية هي : العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية .

كان الفقيه العيسى في طليعة من قاوم الحركة الصهيونية ، قبل أن يصدر جريدته « فلسطين » في يافا عام ١٩١١ وبعد إصدارها ، لتكون لسان حال مفاوم نهويد فلسطين العربية ، وإبان الحرب الأولى نفي إلى الأناضول ولاقى الأهوال هناك حتى انتهاء تلك الهجرة الكبرى ، وفي طريق عودته من المنفى التقى بقوات الأمير فيصل بن الحسين الزاحفة على دمشق فأمره الأمير العربي بمرافقته وعينه سكرتيراً خاصاً بسموه ، وبعد ما نُصّب الأمير ملكاً على سورية عيّن المرحوم العيسى رئيساً للديوان الملكي .

وفي عام ١٩٢١ عاد إلى يافا وواصل إصدار « فلسطين » وكرس صحيفته لمقاومة التغلغل الصهيوني وتحرير الطائفة العربية الأرثوذكسية من النير اليوناني وإيصالها إلى حقوقها الشرعية المهضومة .

وأسهم في الحركة السياسية في فلسطين ودعا إلى إقامة المعرض العربي الأول الذي افتتح في القدس عام ١٩٣٣ وعيّن مديراً له ، وكان الغرض من هذا المعرض نشر الدعوة للسلع العربية في فلسطين والأقطار العربية المجاورة ومقاومة البضائع اليهودية ، وترأس المرحوم العيسى أكثر من مؤتمر أرتوذكسي عربي في فلسطين وكان عضواً مؤسساً وبارزاً في « حزب الدفاع الوطني » . وفي عام ١٩٣٨ بارح يافا إلى بيروت مستشفياً وتوفي في العاصمة اللبنانية في ٢٠ حزيران ١٩٥٠ مخلفاً ديوان شعر في السياسة والغزل ومذكرات قيمة في الحركة العربية .

الترجمة والتأليف « وألقى في « النادى العربى » بدمشق محاضرات منها :

١ - الفلسطينيون عرب .

٢ - السوريون عرب .

وبعد فترة حوّلت « لجنة الترجمة والتأليف » إلى « مجلس المعارف الأعلى » وظلّ المعلوف يزاول عمله فيه باهتمام وعناية .

(هـ) في المجمع العلمى العربى :

ولم تمض شهور حتى حوّل « مجلس المعارف الأعلى » بدمشق إلى « المجمع العلمى العربى » وانتخب التقييد عضواً فيه وكان من مؤسسيه الأوائل^(١) ، فسعى مع زملائه الغيور إلى إنشاء المتحف فى « المدرسة

(١) كان « المجمع العلمى العربى » بدمشق يتألف من ثلاثة أعضاء عاملين . كوظفّن ورئيس ، وهن واحد وسبعين عضواً شرفياً ، بعضهم مقيم فى دمشق والآخر مقيم خارجها ، براساون المجمع بأرائهم وبشاركونه فى عمله العلمى ، أما الأعضاء الموظفون فهم . أنيس ساوم ، الشيخ عبد القادر المغربى ، عيسى إسكندر المعلوف ، والأعضاء الشرفيون هم . الشيخ سليم البخارى ، سليم عنجورى ، فارس الخورى ، الشيخ عبد الرحمن سلام ، الشيخ عبد القادر المبارك ، إلياس القدسى ، عبد الله رعد ، سليم الجندى ، الدكتور مرشد خاطر ، المطران مخائيل نخاس ، رشيد بقدونس ، المستشرق الفرنسى كلېمان هوار Huart والمستشرق الفرنسى دوسر Dussoud والمستشرق عابرييل فران Fernand والمستشرق لويس ماسنيرين والمستشرق الإيطالى جوردنى Gtindi والبرس الإيطالى ليونى كايتانى Gaetani والمستشرق الإيطالى نلليو والمسنرى عريفى Griffine والأب آس Asin الإسبانى واديفه لويس وبراون الإنكليزى وBeaven ويهفن البريطانى ومرغوليوت Margoliouth المسنرى البربطانى والمسنرى =

العادلية » و « مكتبة الملك الظاهر » و « مجلة المجمع العلمي العربي » وفيها كتب مقالاً مطولاً تناول فيه أسماء الكتاب الذين أسهموا ب « تاريخ لبنان » وأسماء مقالاتهم .

وخلال عمل الأستاذ المعلوم في المجمع العلمي العربي بدمشق نظم عقد المحاضرات التي أقيمت في ردهته وسعى سعياً حثيثاً لاقتناء آثار تدمرية يملكها الدكتور حبيب جهور بزحلة فكانت تلك العاديات نواة « دار الآثار العربية » بدمشق .

وفي عداد تلك العاديات الزجاجيات التي قال فيها الأثرى الفرنسى

= الهولندى هوتسما Houtasma والهولندى سنوك هرغرون والهولندى أراندونك والمستشرق الألمانى هومل والألمانى مبنفوخ Mittwoch والألمانى سخاو والألمانى بروكلمان وریشارد هرتمان Haitmaun وهوروفيتس Horovitz والمستشرق الأسوجى زيتير ستين والمستشرق الزوجى موبرج والدانمركى بدرىس والدانمركى بول والدانمركى أوستروب والمستشرق النمساوى موجيك والنمساوى جيير Geyci والمستشرق البولونى كوفالسكى والمستشرق النمساوى كوفالسى موسيل والسويسرى مونتبه Montel والسويسرى هيس Hess والفرنسى ميسوبلير Bellaire والمستشرق رينه باسبه Basset الفرنسى الجزائرى والفرنسى مارسيه Marcais وأرنوركى الفرنسى ، والشيخ محمد أبى سنب (الجزائرى) وحسن حسنى عبد الوهاب (التونسى) وأمين الریحانى والأمير شكيب أرسلان وأحمد تيمور وأحمد ركى والدكتور يعقوب صروف وأحمد كمال والشيخ أحمد الإسكندرى ورفيق العظم والشيخ خليل الخالدى والشيخ سعد الكرمى والشيخ أحمد رضا وجبر صومط والأب لويس سبخو وبولس الخولى والفيكونت فيليب طرازى والشيخ عبد الله البستانى وجرجى بى والشيخ ندر الدين النعسانى وقسطاكي الحمصى وركى مغامز ومحمود شكرى الالوسى والأب أنستاس مارى الكرملى .

١٣١

« فيرولو » : « إنها أفضل مجموعة كاملة لا نظير لها في متاحف أوروبا !
ولما فرغ المملوف من إنشاء « دار الآثار العربية » كانت أول هدية تلقاها
من غبطة البطريك غريغوريوس حداد وهي تمثّل أربعة تماثيل تدمرية
بديعة الصنع وبلاطة من الحرّى (الحجر الأسود) من العصر المكدونى
اليونانى عليها كتابة يونانية طولها ذراعان وعرضها ذراع ونصف مؤطرة إطاراً
بديعاً .

ولكثرة الجهود التى بذها العلامة المملوف فى خدمة المجمع والمكتبة ودار
الآثار العربية انحرفت صحته فعاد إلى زحلة فى صيف عام ١٩٢٥
وانصرف إلى تنسيق « الخزنة المملوفية » وإلى المطالعة والتأليف وتوشيح
مخطوطات خزانته بتعليقات ترشد القارئ إلى اسم الكتاب ومؤلفه وعدد
نسخه وأماكن وجود كل منها .

قصة طريفة :

فى حديث أفضى إلى به الأستاذ المملوف فى صيف عام ١٩٣٥
بزحلة ونشرته جريدة « فلسطين » البافية روى قصة انتخابه عضواً فى
المجمع العلمى العربى « بدمشق دونك خلاصتها :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها قصد العلامة المملوف
دمشق بدعوة من أصدقائه العاميين فى الحقلين القومى والثقافى . وذات يوم
زار المحقق المملوفى الأمير زيد بن الحسين « بوصفه نائباً عن شقيقه

١٣٢

الملك فيصل الأول « فاستقبله الأمير الهاشمي بمجالى التقدير والرعاية ، وكان قد سمع بآثاره القلدية ومؤلفيه « دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » و « الأخبار المدونة والمروية ، فى أنساب الأسر الشرقية » من المرحوم عيسى العيسى ، سكرتير الملك فيصل بن الحسين . وبعد أن رحب الأمير زيد به ابتدره بقوله :

« ماذا تعرف يا أستاذ عن الأمير (قتادة) رأس أسرتنا الهاشمية ؟ فأجابه المعلوف بقوله :

« إن الأمير ” قتادة “ هو رأس أسرتكم الهاشمية ، وكانت له حظوة كبرى لدى الخلفاء العباسيين ، فاستقدمه يوماً إلى بغداد ” المتوكل على الله “ فشنخص إليها بموكب حافل من رجاله حتى قرب من النجف الأشرف فلاقاه رهط من كبار حاشية الخليفة العباسى وقد نهّدوا لاستقباله والترحيب بقدمه !

ولح الأمير قتادة عن كئب أسداً مغلولاً بالسلاسل ، بقوده أحد كبار القواد فلمعت عيناه ببريق قاده . وصاح بحاشيته :

عودوا بنا !

عودوا بنا !

والله لن أدخلها (١) !

والله لن أدخلها !

(١) يعنى مدينة بغداد .

إن بلاداً تذلل فيها الأسود !
والله لن أدخلها ! »

فعاد الأمير "قتادة" أدراجه وعجب رسل الخليفة من رجوعه وعادوا على جناح السرعة يطلعون الخليفة على ما حدث ، فكتب هذا إلى الأمير الهاشمي مستجلباً سبب عودته وقد شارف تخوم بغداد !!
تلقى أمير مكة رسالة الخليفة فأجابه برسالة - لم نعثر عليها برغم كثرة البحث - لكننا ظفرنا بالأبيات التي ذيل بها ردّه وهي :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة ولو أننى أعرى بها وأجوعُ
ولى كفّ ضرغام إذا ما بسطتها بها أشتري يوم الوغى وأبيعُ
معوّدةٌ لثم الملوكة لظهرها وفى بطنها للمجدبين ربيع !
أتركها تحت الرهان وأبتغى بها بدلاً ؟ إني إذاً لرقيع !
وما أنا إلا المسكُ فى أرض غيركم أضوع وأما عندكم فأضيعُ !!

وهنا تهلل وجه الأمير زيد لهذه القصة الرائعة ونهض مقبلاً شاربى الأستاذ المعلوف ، وفى اليوم التالى صدر مرسوم ملكى بتعيين العلامة المعلوف عضواً فى « لجنة الترجمة والتأليف » التى استحالَت فيما بعد إلى « المجمع العلمى العربى » فخدمه المعلوف خدمات جليلة وزوّد متحفه بآثار نفيسة نادرة المثال .

(د) في المجمع العلمي اللبناني :

وفي سنة ١٩٢٧ قرّر المجلس النيابي اللبناني إنشاء « المجمع العلمي اللبناني » ، وفي آذار ١٩٢٨ عقد المجمع أولى جلساته وانتخب الشيخ عبد الله البستاني رئيساً له ومن أعضائه : عيسى إسكندر المعلوف ، الشيخ مصطفى الغلاييني ، وديع عقل ، محمد جميل بيهم ، الشيخ إبراهيم المنذر ، الشيخ أمين تقي الدين ، إلياس فياض ، بشارة عبد الله الخوري « الأنخل الصغير » .

وفي ٢٨ تشرين الأول من عام ١٩٢٨ انتخب وديع عقل صاحب جريدة « الراصد » البيروتية رئيساً للمجمع خلفاً للشيخ عبد الله البستاني وفي ١٨ تشرين الأول من عام ١٩٢٩ انتخب المجمع محمد جميل بيهم رئيساً له خلفاً لوديّع عقل ، وفي ٣ شباط من عام ١٩٣٠ صدر مرسوم بإلغائه وشطبت مخصصاته بداعي التوفير .

(هـ) مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

وفي عام ١٩٣٣ انتخب المعلوف عضواً في « مجمع اللغة العربية ^(١) » بالقاهرة ، وفي عام ١٩٣٤ يّمّ القاهرة واشترك مع زملائه في إعداد العدة

(١) تألف هذا المجمع عند تأسيسه من السادة :

محمد توفيق رفعت (رئيساً) وحاييم نحوم ، والشيخ حسين والي ، والدكتور فارس نمر ، والدكتور منصور فهمي ، والشيخ إبراهيم حمروتش ، والشيخ محمد الأخضر حسين ، وأحمد العواري =

١٣٥

لإصدار مجلة هذا المجمع وواظب على حضور جلساته وحدهم بغيرة وإخلاص وكتب في مجلته مقالات طريفة تدلّ على عمق تفكيره وأصاله رأيه ، وله على صفحاتها مناظرات لغوية مع نمر من زملائه حول الألفاظ والمصطلحات الملائمة لذوق هذا العصر وقواعد البيان في الفصاحة والرشاقة من مفهوم العامة .

(و) في مجمع البرازيل :

وفي مطلع عام ١٩٣٦ انتخب « مجمع البرازيل للغة والتاريخ والآداب » بمدينة ريو دي جنيرو الأستاذ المعلوم عضواً فيه ، وهذه ترجمة المرسوم الذي تلتاه المترجم له من الرئيس الدائم للمجمع البرازيلي :

ببالغ الغبطة أحيط الأملح الرفيع القدر علماً بأننا . ناقترح من عضو المجمع السنيور (فنتروللي^(١) سوبرينيو) انتخبنا سيادتكم عضواً مراسلاً لمجمع البرازيل للغة والتاريخ والآداب في ريو دي جنيرو لدى « المجمع العلمي العربي » في دمشق و « المجمع العلمي اللبناني » في بيروت و « مجمع اللغة العربية » في القاهرة ، هذه المجامع العلمية التي أنتم عضو

على الجارم ، الشيخ أحمد على الإسكندري ، الأستاذ أ . ر . جب ، الدكتور أ . فيشر ، الأستاذ أ . نلينو ، الأستاذ م . ماسييون ، الأستاذ أ . ج . فنسك ، محمد كرد على ، الشيخ عبد القادر المغربي ، الأب أنسناس ماري الكرمل ، عيسى إسكندر المعلوم ، حسن عبد الوهاب (أعضاء) .

(١) أمير شعراء البرازيل ومترجم ملهمة « على بساط الريح » للمرحوم فوزي المعلوم إلى اللغة البرتغالية .

١٣٦

في كل منها ، ولدى شعوب هذه الجامعات .
وبانتظار ما تقرر وانه بالمركز المرموق المكانة الذي ميّزكم به مجتمعنا
نرجو من سيادتكم إبلاغ قرارنا هذا للمجامع العلمية الآنف ذكرها ،
وفي طيه نسخة (طبق الأصل) عن مرسوم تعيينكم هذا لإيداعها تلك
الجامع .
وتفضلوا بقبول أصدق التحيات وموفور الاحترام من زميلكم المعجب
بكم :

أ.م.د. ر. بورير

روهان

وفي عام ١٩٣٧ عيّن العلامة المعلوف عضواً في المؤتمر العام للأدب
العربي في تونس ، لكن انحراف صحته لم يمكنه من حضور جلساته .
كانت تربط المعلوف بالجامع العلمية وأعضائها البارزين في أوروبا
 وأميركا وبأعلام المستشرقين^(١) صلات من الود والتقدير وبينه وبين
أكثرهم مراسلات قيمة ومساجلات أدبية ولغوية وزاره الكثيرون منهم
ووقفوا على مخطوطات « الخزانة المعلوفية » ومؤلفاته وكتبوا عنها الشيء الكثير
كما كتب عنهم في مجلته (الآثار) وفي غيرها من المجلات والجرائد
العربية .

(١) نشر المستشرق الألماني ج . كيهماير ترجمة العلامة المعلوف في مجلته « معرض
الأفكار الشرقية » - مجلد عام ١٩٢٨ .

وكيف لا تعرف البرازيل قدر هذا النابغة المحقق ، فتسند إليه عضوية
مجمعها ؟ وفيها سطع نجم « فوزى » وفي أجوائها تفتتقت قريحته ، ومن
شواطئ كواروجا (ريودى جنيرو) امتطى فقيد الأدب العالمى طيارة فى
صيف ١٩٢٦ ولما انحدر منها نظم الملحمة الفريدة (على بساط الريح^(١))
التي يحسبها أدباء العالم العربى ورواد الإنسانية ثروة نفيسة لا تعدلها ثروة ،
برائع ديباجتها وسامى مغزاها ومرهف خيالها ، وطبعت هذه الملحمة بالعربية
والإسبانية والبرتغالية بصورة ملونة وترجمت إلى اللغات الحية التالية :

- ١ - إلى الإسبانية : بقلم كبير شعراء الإسبان فرنسيسكو فيلاسباسا
عام ١٩٣٠ .
- ٢ - إلى البرتغالية : بقلم كبير شعراء البرازيل فتورلى سوبرينو ،
عام ١٩٣٠ .
- ٣ - إلى الإنكليزية : بقلم المستشرق جورج كرفث الموظف فى المتحف
البريطانى بلندن .
- ٤ - إلى الفرنسية : بقلم الأستاذ أسعد محفل الدمشقى الأصل .
- ٥ - إلى الألمانية : بقلم : المستشرق الألمانى ج . كمبفماير ونشرها فى

(١) من الغريب أن الشاعر المرحوم إلياس فياض ، عند ما جاء زحلة لإلقاء مراثيه
فى المرحوم « فوزى » رأى ملحمة « على بساط الريح » بطبعها النفيسة فأعجب بها وقال لوالده
« فوزى » العلامة عيسى إسكندر المعلوف : « إني أقبل عن طيب خاطر أن أموت بنقص
ثلاثين عاماً من عمرى ويطلع لى مثل هذا الأثر الخالد ! » .
ولم يمض على إلقائه مراثيه بضعة أسابيع حتى فقد فيه الأدب العربى المعاصر شاعراً كبيراً .

مجلته « معرض الأفكار الشرقية » ببرلين .

٦ — إلى الروسية : بقلم : المستشرق الروسي كروتشوفسكى (مع قصائد أخرى) .

٧ — إلى الرومانية : بقلم : الأستاذ إميل مرقد الدهشقى الأصل .

٨ — إلى الفرنسية : بقلم : الدكتور فايز عون ، قدمها « أطروحة » لجامعة باريس لنيل (الدكتوراه) .

٩ — إلى الإنكليزية : بقلم ، الدكتور فؤاد عقل ، نزيل نيويورك .

١٠ — إلى الفرنسية : بقلم : السيدة إفلين بسترى ونشرتها في مجلتها (فينيقيا) التي كانت تصدرها في بيروت .

١١ — إلى الفرنسية : بقلم : الأستاذ فوزى سعيد ، نزيل بيروت .

تأمل أيها القارئ مكانة هذا الشاعر النابغ . الذى ضمت رفاته ربوع البرازيل ، وحتت عليها أفياء « سان باولو » ومكانة شقيقه الشاعر المجدد « شفيق » الذى بهر الأدباء برائع منظومه وعلى الخصوص ماححة « عبقر » .

* * *

من أبرز صفات العلامة عيسى إسكندر المعلوف التى يذكرها زملاؤه فى المجامع العلمية وعارفو فضله من الأعلام الأخيار فى الشرق العربى قلة الكلام على نفسه ، وبُعده عن الفخر بجهوده ، وتحاشيه الإشادة بنبوغ أنجاله وآثارهم . ويرى من العار الأخذ بأقوال الكاتب النمساوى الشهير

ماكس نوردو القائل : « لا تذكر نفسك إلا بالخير ، ولا تقف في هذا عند حد ، بل عظم نفسك ، وترنم بالثناء عليها ، واسرد مناقبها وآثرها واستعمل لذلك جهدك من الفصاحة والحلاوة ، وأضف إليها أفخم الصفات وأضخم النعوت . واعلم أن سواد الناس لا طاقة لهم على التمييز والحكم ، فاحكم لهم أنت ، وليكن ظهورك بينهم بجلبة يسمعون الأصم ويبصرها الأعمى ! » .

كان المملوف بعيداً عن الدعاوة لنفسه وتأطير اسمه بهالة من المجد ، وكان محبباً للسلم ، عازفاً عن الشر ، وعاش دهره طيب القلب ، حسن السريرة وآيته في حياته قول الشاعر :

وإني لألقى المرء أعلم أنه عدو وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بنراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن
وتميز ، عليه رضوان الله ، باعتزازه بعربيته ، وغيرته على عروبه ،
وتبهامه بالبادية وبما أنبت من رجال أعلام ، وكانت أحب (صورة)
للصحراء في نفسه (الصورة) التي وشتها ريشة الشاعر العربي الكبير
معروف الرصافي القائل :

ولكن بزة البدوي أبني فن ثوب على ومن عباء
ومن كوفية لرمت عقلاً يكون الرأس منها في غطاء
فذا زى يتم به رجوعى إلى عيش بسيط ذى هناء !
وأمتع (صورة) للعرب الذين تحدر منهم ولم يتنكر لهم المملوف ،

(الصورة) التي رسمتها ريشة إمام اللغة العربية الشيخ إبراهيم اليازجي
القائل :

وعن آثارنا أخذ الأنامُ	لعمركُ نحنُ مصدرُ كلِّ فضلٍ
وإنَّ جحدتْ مآثرنا اللئامُ	ونحنُ أولو المآثرِ من قديمٍ
أياديَ ليس تُنكرها الشَّامُ	فقد عرِفَ العراقُ لنا قديماً
يسيل لها إلى اليمن انسجامُ	وفي أرض الحجاز لنا فيوض
لهامات النجوم بها اعتمامُ	وفوق الأندلس لنا بنودُ
ها في جبهة الدهر ارتسامُ	وسلَّ في الغرب عن آثار فخر
وليس لنا بُعروته اعتصامُ	ولسنا القانعين بذكر هذا
إلى أنْ يستقيمَ لنا قِوامُ !	ولكنّا سنجهدُ في المعالي

وفي أُخريات أيامه كان ينشد نفسه قول سند بن عنان الأزدي :

وزائرة للشيب حلتْ بمفرقٍ فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف
فقالَتْ : على ضعفى استطلت ووجدنى
رويدك للجيش الذى جاء من خلفى !

* * *

« أيها ^(١) التاريخ ، لقد جاء دورك الآن لتحدث عن ذلك الكبير

(١) من خطاب ألقاه الأستاذ راجي الراعى في حملة ذكرى الفتييد المملوف بزحلة .

الذى قضى حياته يتحدث عنك !
 كان وفياً لك حتى الموت ، فكن وفياً له حتى الخلود !
 قم من بين أجيالك ، وحى ذلك الرحالة الجبار الذى أفنى أيامه
 ولياليه وهو يتسلق جبالك ، ويهبط أوديتك ، ويشرب من ينابيعك ،
 يحى ما مات منك فى عقول الناس !

أيتها اللغة ، اجمعى ما تشتت فى دولتك من حروف و « ألفاظ »
 و « معان » وكتب ومخطوط وقراطيس وأقلام وأعلام ، وسيرى بها فى
 موكب الإكبار وعرفان الجميل إحياء لذكرى رفيقك القديم وبطلك
 الجندي الأمين ، اجمعى موكبك الجليل لمن أقام لك مجمعا على كل رابية
 من روابى الشرق ، وانحنى عليك العمر كله يفتش فى رمالك عن ذهبك
 الدفين ، وينظم ما انتثر منه عقوداً يحلى بها جيدك فى معرض البيان !

وأنت أيتها الأخلاق الرفيعة ، هاتى لنا من عبيرك ، فهذا رجلك ،
 رجل الوفاء والأمانة والصدق والوداعة والإخلاص ترف روحه عليها !

وأنت أيها القلم ، لقد ذهب المارد الذى سودك فى القراطيس فتمرد ،
 تمرد الماردك ، واذرف مدادك رثاءً ودماً !

وأنت يا لبنان ، هات لعلامتك العظمى ، عاتم مجدك ، وقل لينابيعك
 أن تسقى تراب ساقيك الذى أصبح اليوم ظمآن ، وخذ من صخورك السماء
 صخرة لضريحه لترفع عليها الأمة تمثالاً !

وأنت أيها الموت ، أنت الكريم الذى يوزع هداياه أكفاناً ، إن
حفنة ترابك لن تخفيه عنا ، إن ذكراه أقوى منك !
أعدّه الله لقمّة من قمم الشرق ، فشى إليها بشجاعة نادرة وصبر
عجيب ونصب عليها علمه الخالد !
كان حس المجد فيه ، مجده الأدبى العلمى عميقاً قوياً ، وكانت له
أطماع بعيدة المدى ترتدى غير هذه الأثواب التى يرتديها الفاتحون ! »

الفصل السابع

جملة القول في المعلوف

وَهَبَ عيسى إسكندر المعلوف حياته للمعرفة . غير وانٍ ولا ممسك ،
ونقش^(١) بيده ، وكتب بحبره البنفسجي ، الذي خطّ به جميع
ما كتب ، اسمه على صفحة المعرفة في شرقنا المنبث ، المتمطى ،
المستقبل دورة جديدة مبدعة من دورات تاريخه العريق ، فليس في وسعنا
أبناء الحياة الدنيا أن نسبغ على ذكره حياة لم يطبعها هو بطابع البقاء ،
بما وهبها ووهبنا من حبات قلبه . وأنوار عينه . ولمعات فكره ، وخطرات
قلعه !

إن ذكرى المعلوف حية ، لأنه أخذ من معين الحياة الأسنى أضواء
ألقاها على دروب مظلمة ، ولأنه أدرك أن أفضل انتفاع بالحياة إنما هو
أن تبدلها في سبيل شيء يبقى بعد أن تزول !

كان شيخنا فئة من هؤلاء الباحثين ، مجتمعة في بردى رجل فرد ،
وكان مؤرخاً ذا أصالة ، لأنه خرج على النهج المألوف في زمنه ، من عدّ
التاريخ سرداً وحسب ، لأسر مالكة توالى ، ومعارك وقعت ، إلى

(١) (مع الطلبة) : فؤاد صروف .

استكشاف نواح من تاريخ المشرق والعرب وبخاصة لبنان ، من دراسة المخطوطات القديمة والعناية بجمعها وتحقيق ما تيسر تحقيقه منها ، كما فعل في تدقيقاته المنشورة في مجلة « النعمة » ومجلة « المجمع العلمي العربي » في دمشق ، وفي كتابه « نفائس المخطوطات و « خزائن الكتب العربية » ولأنه عمد إلى دراسة طائفة من أسماء القلاع والحصون في سورية ولبنان ، جامعاً فيها بين معرفة الآثار القديمة واللغات القديمة والروايات المتواترة المنشورة والمنقولة ، مستبيناً المعاني التاريخية في الأسماء والأساطير الخرافية وآثار العبادات القديمة وأما كتبها وأبنيتها وهياكلها ، وذلك بتحليلات وصفها بقوله : « توافق التاريخ والعقل ولعل كنت على هدى » وقد عني علاوة على ذلك بتاريخ الأسر اللبنانية والشرقية فسيرها ، أسراً وأعلاماً ، مادة زاخرة بحقائق التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفكري ، كما فعل في كتابه « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » وكتابه « الأسر العربية المشهورة بالطب وأشهر المخطوطات العربية الطبية » و « العرر التاريخية في الأسر اليازجية » وغيرها ، وأخيراً في كتابه « الأخبار المدونة والمروية ، في أنساب الأسر الشرقية » الذي لم يزل مخطوطاً في مجلدات كثيرة وعسى أن ينشر في القريب القريب !

إن رجلاً يقضى ستين سنة أو تزيد ، يبحث ويحقق ويؤلف ويحاضر وينشر ، ويخزن ما لا يتاح نشره ، ثم يبيحه للباحثين الذين يلونه ، كما فعل في المئات الخمس من مجموعة مخطوطاته التي اقتنتها مكتبة الجامعة

الأميركية ، ويشترك اشتراكاً فاعلاً حصيفاً في ثلاثة مجامع علمية في دمشق وبيروت والقاهرة ، فيشهد دوراتها ، ويسهم في مناقشاتها ومنشوراتها ، ويصدر مجلة (الآثار) ويكتب لمجلة «المقتطف» وغيرها — لحو حقاً رجل من الأقيال ، ولو هو قصر الجهد على ناحية واحدة من هذه النواحي الكثيرة ، لكان خليقاً بكل إعجاب . أما وقد جمع بينها وأحسن العمل ، وإن تفاوتت قيمته العلمية ، ففي وسعنا أن نقول ، دون أن نعدو الحقيقة أو أن نبالغ في وصفها ، إن عيسى إسكندر المعلوف كان مؤرخاً كبيراً ، في فترة من نهضتنا الحديثة كنا فيها في أشد الحاجة إلى مثل عمله الجامع المنبه ، فقد اتصل من ناحية بالكبار من المؤرخين العرب القدامى وجرى على نهجهم ، وكان من ناحية أخرى طليعة جيل جديد من المؤرخين على النهج العلمي الحديث ، فجاس أمامهم ، في دراسة الوثائق والأصول والآثار واللغات والمعادات ، دروباً ضيقة وعرة ، أخذت تتسع اليوم وتعبّد ، فكان محافظاً ورائداً في آن ! » .

كان المغفور له عيسى إسكندر المعلوف منارة وضوءاً ، وذخيرة زاخرة ، وبديهة حاضرة ، وخزانة عامرة ، وكان سادناً من سدنة (الضاد) صان بيانها ، وأسهم في نشر أدبها ، وجلال تاريخ قومه في المشرق والمغرب العربي !

« الناس ^(١) بمعظمها لا تدرك هول المصائب الذي ألمّ ببلادنا وقومنا ،

(١) (أوراق لبنانية) : مجلد ١٩٥٦ . يوسف إبراهيم يزبك .

برفقة المؤرخ العظيم أستاذنا عيسى إسكندر المعلوف ، ذلك لأن الناس ،
بمعظمنا ، تجهل حقيقة وضعنا في عالم التاريخ ، وتجهل أن فقيدنا
كان . وحده تاريخاً وخزانة ومعلماً وصلة ، وشعاراً وبناء .

لا نعلم متى يكون للبنان — عيساه — الآخر ، ولكننا نعلم أن خسران
لبنان . في وقتنا الحالى هذا — الحجّة — في بسط ماضيه ، إنما هو خسارة
لا تعوّض !

وإلى أن تشعر الدولة بأنها مسؤولة ، وجدانيةً وقوميةً ، عن قضايا
تاريخنا الوطنى — أعنى : إلى أن ينعم الله على لبنان برجال لا ينجحون
بتاريخ آبائهم وجدودهم ، فتراهم يعنون بدويرعون مقوماته — إلى أن تأتى
هذه المرحلة المنشودة التى نجهل ساعتها : سيظل الأستاذ العظيم عيسى
إسكندر المعلوف دعامة التاريخ اللبنانى ، له ، ولتلاميذه وحدهم —
شرف العمل فى بناء الوطنية اللبنانية الصحيحة !

إن مئات الكنوز التاريخية التى اكتشفها فقيدنا الجليل ، وألوف
الأحداث الغامضة التى جلاها بمعرفته النيرة المخصّاب ، تشمخ باسمه
منارة فضل ، إلى الأبد ، فقد عمل ستين سنة ناضجة فى إنقاذ الأسانيد
والمخطوطات . ونك الألغاز والأحاجى ، وطاف بالأديار والقرى والبيوت
القديمة فى مرتفعات القمم وسفوح الأودية . حتى جمع ما استطاع جمعه
من أصول ، ما كنا نعرف محتوياتها المجهولة القيمة لولا غيرته على سمعة
وطنه !

عاش العلامة عيسى إسكندر المعلوف عيش القديسين في تأدية رسالته :
أميناً صادقاً ، وفيئاً مؤمناً ، صابراً ثابتاً ، فقليل على قومه أن يرفعوا له
تمثالاً من الماس ، يمرون به صباح مساء ، لينحنوا أمامه إجلالاً ،
ويقبلوا التراب الذي ارتفع تمثاله عليه ! » .

ولئن هوى هذا النسر من سامق عليائه ، لقد ظلت شهرته خفاقة خفوق
العكاس ، خالدة خلود الهرم ، وستظل آثاره القلمية « تفرى الدجى
بشعاعها الجوال ! » وستظل ذكراه حية بأعجاله ، النور المحلقة في جواء
الأدب العربي المعاصر !

وجملة القول في العلامة عيسى إسكندر المعلوف أنه « موسوعة »
ضخمة ، عبّ من معينها الثر جيلٌ من الأدباء تزعم النهضة الفكرية
بحقّ ، وألّف عشرات المجلدات في آداب العرب وعلومهم وتاريخهم ،
ودعا إلى التغنى بكفاءات وأقدار السلف الصالح وتراثهم ، والاعتزاز بما
أضفوا على « الخزانة العربية » في شتى ألوانها من ثقافة وعلم وفن !
كان عيسى إسكندر المعلوف ملكاً لنفسه ، لكنه بعد أن لحق بربه ،
أصبح ملكاً للتاريخ !

الفهرست

صفحة

٧	الإهداء
١١	المقدمة الأولى لعام ١٩٣٩
٢٢	رشحات قلم لعام ١٩٣٩
٢٥	المقدمة الثانية لعام ١٩٦٤
٣٢	رشحات قلم لعام ١٩٦٤
٣٤	المدخل

الفصل الأول :

٣٧	بنو المعلوف أحفاد الغساسنة
----	--------------------------------------

الفصل الثاني :

٤٨	عيسى إسكندر المعلوف : نشأته — دراسته — أعماله
----	---

الفصل الثالث :

٥٦	مؤلفاته — محاضراته — شعره
----	-------------------------------------

صفحة

الفصل الرابع :

٨٨	« الخزانة المملوئية »
٩٣	مخطوطات « الخزانة المملوئية »
١٠٧	يوم فى خزانة عيسى إسكندر المملوف

الفصل الخامس :

١١٧	المملوف مؤرخاً
-----	---	---	---	---	---	----------------

الفصل السادس :

١٢٧	المملوف فى المجمع العلمى واللغوىة
-----	---	---	---	---	---	-----------------------------------

الفصل السابع :

١٤٣	جملة القول فى المملوف
-----	---	---	---	---	---	-----------------------

من آثار المؤلف

- ١ - عرس ومأتم (اقرأ) صدر في عام ١٩٥٩
- ٢ - البستاني وإلياذة هوميروس صدر في عام ١٩٦٣
- ٣ - عيسى إسكندر المعلوف - المؤرخ الموسوعي الأديب صدر في عام ١٩٦٩

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

عيسى إسكندر المعلوف

المؤرخ الموسوعي الأديب

كتاب تناول فيه المؤلف سيرة شيخ مؤرخي العرب
المعاصرين عيسى إسكندر المعلوف ، عضو المجامع
العلمية واللغوية في دمشق وبيروت والقاهرة والبرازيل ،
وصاحب المصنفات الشهيرة ، وفي طليعتها « الأخبار
المدونة والمروية في أنساب الأسر الشرقية » ، وهي
الموسوعة التي تقع في ١٤ مجلداً . . كما تناول المؤلف في
هذا الكتاب جهاد المترجم له ، مدة ستين سنة أو تزيد ،
يبحث ويحقق ويؤلف ويحاضر وينشر ويخزن ما لا يتاح
نشره ، ثم يبيعه للباحثين . . .